القديس يوحنا

الذهبي الفم

تأليف

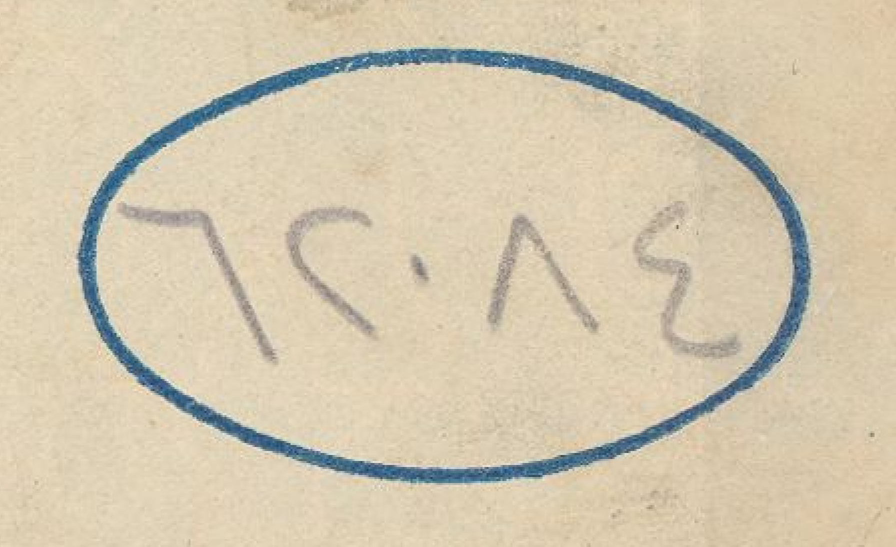
هنري ترديف

عربه عن الفرنسية

الأب رفائيل نخلة اليسوعي

منشورات المعهد

المعادي



القديس يوحنا

الذهبي الفم

القديس يوحنا
الذهبي الفم

تأليف

هنري ترديف

عربه عن الفرنسية

الأب رفائيل نخلة اليسوعي

منشورات المعهد

المعادي

لا مانع من طبعه

القاهرة فى ١٢ مارس ١٩٦٣ ✝

الأب يوسف لويس

نصرح بالطبع

القاهرة فى ١٩ مارس ١٩٦٣

✝ إسطفانوس الأول

بطريرك الكرسى الإسكندرى وسائر

الكرازة المرقسية للأقباط الكاثوليك

تمهيد

لقد بذلت أقصى الجهد لتعريب كتاب هنري ترديف بدون أدنى تصرف ، سوى كوني قد جمعت مراراً فى جملة واحدة عربية ترجمة جملتين فرنسيتين قصيرتين جداً ، تجنباً للتفكك المفرط المخالف لأصول الإنشاء العربى .

فى كل ما عدا ذلك قد آليت على نفسى أن أنقل أدق معانى النص الفرنسى إلى لغتنا ، بعد إفراغها فى قالب عربى محض بقدر الإمكان . ومن ثم قد تركت بعض عيوب الأصل على علاتها ، ومن جملتها التكرار المتواتر لأسماء الأعلام ، حيث كانت لباقة التعبير تقتضى أن ينوب منابها ضمير أو اسم إشارة .

فعسى أن أكون ، بعون الله تعالى وبأمانتى الكاملة فى هذا التعريب ، قد كذبت مثلاً سائراً عند الإيطاليين ، وهو القائل : « إن المترجم لخائن » .

الأب رفائيل نخلة اليسوعى

المعادى ، فى ٦ مارس ١٩٦٣

الفصل الأول

الشباب والاختيار

أنطاكية

بعد رومة والإسكندرية كانت أنطاكية السورية ، فى أواسط القرن الرابع ، المدينة الثالثة فى الإمبراطورية الرومانية ، بصفة عاصمة إقليم الشرق المدنى ومركز مندوب الإمبراطور ، المكان الذى تُنقل منه الأوامر السياسية والعسكرية الصادرة من السلطة المركزية .

كانت المدينة ممتدة على ساحل العاصى ، محميّة بسور متين محصّن ، ومحاطة بجبال شامخة . فضلاً عن تمتعها بكل ملذات موقع فتّان ، كانت تفتخر ببناياتها البديعة وبرياضها وينابيعها ، وهى مآثر السلطة الإمبراطورية أو فريق من الأغنياء .

أنطاكية ، مع كونها مشيدة فى صميم سوريا ، كانت مدينة ذات ثقافة ولغة يونانيتين ، شديدة الاحتقار للثقافة الساميّة القديمة ، وقد ازدرتها وتركتها لفلاحى الأرياف المحدقة بها . ومن ثم لن يعرف يوحنا الذهبى الفم السريانية أبداً ، فإنها لغة « البرابرة » .

عدد أهالى عاصمة سوريا كان غير زهيد ، نحو مئتى ألف ، وقد كثر بينهم اختلاف الجنسيات ، يجاور فيها الرومان واليونانيون الفرس والأرمن والعرب واليهود ، حتى الإسقيطيين (scythes) والهنود . يجوز الإيقان أن جميع أولئك الناس مفرطو الاهتمام بالمال المقتنى بالحلال أو الحرام ، وأن كثيراً منهم مهتمون بأنواع الملذات . . . كانوا هائمين بالمسرحيات ، بسباقات الخيل، بحانات دفنة (Daphné) . ولاشك أيضًا ، أن فى هذا المركز السياسى وملتقى الشعوب ، كان الغنى ، بأشد الوقاحة ، والفخفخة ، بأقصى درجات المفاخرة ، يتجليان بإزاء أسفل دركات الفقر الشرقى، المدقع والقذر ؛ فلم يكن جميع ذلك مصدر تقشف فى الأخلاق . ونضيف ، تكملةً لوصفنا هذا ، نزعة مستمرة إلى التمرد والثورة ، وتهديداً دائماً من قبل إيران القريبة الجريئة بل المحراب أحياناً .

إذا كانت أنطاكية ، لكل هذه الأسباب ، ومن جملتها فساد الأخلاق ، مدينة شهيرة ، فكان لها مع ذلك ، فى عيون النصارى المؤلفين نصف أهاليها ، بغضّ النظر عن حرارة تقواهم أو فتورها ، عنوان مجد نسيج وحده على وجه الإطلاق . فإنها هى ، فى الواقع ، التى رأت نشأة أول كنيسة خارجة من الوثنية ؛ فى أنطاكية استُعمل اسم مسيحى المرة الأولى ، ومنها انطلق بولس ، برنابا ، مرقس ولوقا لتبشير العالم الوثنى . الشهيد الشهير أغناطيوس قد كان أسقفها ، وكثيرون غيره من أهاليها الشهداء كانوا سبب فخر لتلك المدينة . أما كان الناس لا يزالون

يجتمعون فى كنيستها القديمة ، الكنيسة « الرسولية » ، المدعوة هكذا لأن بطرس و بولس و برنابا قد وعظوا واحتفلوا بالقربان المقدس فى ذلك المكان ؟ يوماً من الأيام سيعظ فيها الذهبي الفم ، فيلقبها بلقب « أم كل الكنائس » الفتان . بيد أن هذا المعبد الموقّر كان أضيق وأقل أبهةً من أن يليق بعاصمة كان أسقفها ، منذ سنة ٣٢٥ ، ذا سلطة على نحو مئة وخمسين من زملائه فى مُدن أخرى من إقليم الشرق المدنى ، فيتصدر اجتماعهم فى منتصف أكتوبر من كل عام . ولذلك كرست سنة ٣٤١ « الكنيسة الذهبية » . « الكنيسة الكبرى » ، التى باشر بناءها قسطنطين الكبير وأنجزه ابنه كونستانس . فضلاً عن ذلك كانت توجد فى جميع الأنحاء المحيطة بالمدينة كنائس صغيرة ، سُميت « Martyria » أى مستشهدات ، لأنها قد شيدت فوق قبور الشهداء .

لقد سبق قولنا إن نصف الأهالى كانوا نصارى ، وذلك لا يعنى اتحاد جميعهم فى الإيمان المحدد فى مجمع نيقية . كثيرون كانوا ينتمون إلى السيد المسيح ، وهم فى الواقع أتباع الهراطقة . لا يهمنا هنا إحصاؤهم ؛ فلنكتف بقولنا إن الأريوسية ، مع الحكم عليها فى نيقية ، كانت تواصل قسمة الكنيسة ، إمّا على وجهها المطلق ، المنكر فى المسيح صفة الأقنوم الثانى من الثالوث الأقدس ، وإمّا على وجه مخفّف بقولها إن المسيح شبيه بالآب فى الجوهر ، أو شبيه بالآب ، لا غير ، مما يناقض وحدة الجوهر بينهما وفقاً للإيمان الصحيح . إيانا والانخداع ، فإن الخصام لم يكن

مقصوراً على الألفاظ ، بل كان محوره خلاص النصارى بأجمعه ، فلو لم يكن المسيح إلهاً حقّاً من إله حق ، ومشاطراً لأبيه فى الجوهر ، لما تم خلاصنا ، لأن الله الكلمة لم يتخذ طبيعتنا البشرية .

لم يمكن أن تُرضى الأريوسية المعتدلة أوستاثيوس ، أسقف أنطاكية ، الشديد التمسك بوحدة الجوهر . بيد أن الأريوسية المعتدلة كانت رائجة ، والأسقف أوسابيوس النيقومادى ، صاحب الحظوة عند الإمبراطور قسطنطين ، كان قد نجح فى حث سينودس من الأساقفة على عزل أوستاثيوس ، وتحريك الإمبراطور إلى نفيه . قد حدث ذلك سنة ٣٣٠ ، فخلف الأسقف المنفى بولينس السيرى (de Cyr) الأريوسى المعتدل ، ثم توفى ستة أشهر بعدئذ ، وكان خلفاؤه ذوى النزعة نفسها . مع ذلك قد بقى معظم نصارى أنطاكية تحت سلطتهم ، لأن أوستاثيوس ، على ما قال الذهبى الفم ، كان قد أشار عليهم قبل رحيله بعدم الانفصال عن الكنيسة الرسمية . . . بين سنتى ٣٤٤ و ٣٥٨ كان أسقف أنطاكية لاونُس الخصىّ ، وقد غالى فى العطف على الأريوسية المطلقة ، فنتج عن ذلك التشكك والتهديد بالانشقاق من قِبل أتباع مجمع نيقية الثابتين على الإيمان الرسمى . بعد وفاة لاونس انتُخب أودُكس ، ثم عُزل فى العام التالى لأريوسيته المطلقة . فخلفه أنّيانوس وما لبث أن طُرد بدون أن ينوب أحد منابه . أخيراً سنة ٣٦٠ انتخب ملاتيوس ، فعرف كيف يُرضى كل رعاياه ، مع أن أتباع مجمع نيقية قد استطاعوا اتهامه بالأريوسية المعتدلة .

منذ بدء سنة ٣٦١ نُفي بسبب إبداء عطفه على الإيمان النيقاوى فى مباحثة الأساقفة، وقد أحدث رحيله اضطرابات فى المدينة وأقيمت فيها مجاهرات...

أفزويوس المفرط فى أريوسيته المطلقة ، قد انتُخب أسقفاً لأنطاكية بدلاً منه ، وفى تلك الظروف ظن النيقاويون أنه يجب عليهم الانفصال عن الكنيسة الرسمية وإنشاء فريق من المتمسكين بالإيمان القويم . بل حاولوا الاتحاد بنيقاويين آخرين من أتباع أوسثاتيوس ، المنشقين عن الكنيسة الرسمية منذ سنة ٣٣٠ ، غير مكترثين لتعنيف أوسثاتيوس المكرر ، بيد أن هؤلاء أبوا كل تقارب عن عدم تساهل فى العقيدة أو عن روح تعصب فى شيعتهم .

عام ٣٦٠ صار يوليانوس الجاحد إمبراطوراً ، فأعاد منذ سنة ٣٦٢ الأساقفة المنفيين على عهد العاهل السابق ، بقصد إثارة اضطرابات بين النصارى . إذ ذاك شوهد مشهد مؤسف : المسيحيون المتشاقون يتقاسمون -إذا جاز ذلك التعبير- كنائس المدينة ليجتمعوا فيها ، كل فريق على حدة : النيقاويون أتباع ملاتيوس فى الكنيسة القديمة ، الأوسثاتيوسيون فى كنيسة القديس سمعان ، والباقون فى الكنيسة الذهبية . رجع ملاتيوس فوجد الأحوال تكاد لا تدعو إلى الطمأنينة : تجددت بهوس المجادلات اللاهوتية ، وكذلك المجادلات على الأشخاص . وبينما كان أثناسيوس الإسكندرى وأسابيوس الفرسيلى (de Verceil) وإستاريوس البتراوى (de Pétra) يبذلون جهودهم لتقليل الأضرار ، إذا بلوسيفوروس الكلياري (de Cagliari)

المتشدد الشرس ، الصعب المراس والمُرعد ، قد عقّد كل الأمور بسيامته أسقفاً من الأوستاتيوسيين بمخالفة جميع الشرائع .

كان إذاً لأنطاكية ثلاث جماعات مسيحية وثلاثة أساقفة : أفزويوس عند الأريوسيين ، ملاتيوس عند النيقاويين ، بولينوس عند الأوستاتيوسيين . وقد عانى ملاتيوس ما عاناه لحث بعض زملائه فى مصر وإيطالية على قبول أرثذكسيته[1] ، بحيث عدت الإسكندرية وروما بولينوس الأسقف الشرعى الوحيد ، بينما كان أهالى المدينة لا ينخدعون بذلك لأسباب واضحة . من جهة أخرى قد نفى ملاتيوس ثانيةً سنة ٣٦٥ لرذله الأريوسية . لكن أتباعه قد ثبتوا فى موقفهم . ثم رجع عام ٣٦٧ . وفى سنة ٣٧٠ عده باسيليوس القيصرى ، على وجه رسمى ، الأسقف الشرعى الوحيد فى أنطاكية .

الولادة والشباب

بعد وصف المحيط ، كما فعلنا ، بقى علينا أن نشاهد عيشة البطل فيه. يوحنا الملقب منذ القرن السادس بالذهبي الفم . قد وُلد فى أنطاكية من

(١) الكلمة « أرثذكسية » فى هذا الكتاب تعنى دائماً سنة الكاثوليك الخاضعين لبابا رومة ، خليفة القديس بطرس .

أبوين مسيحيين . والده سكوندُس — ولعله لاتيني الأصل — كان رئيس الجيش السوري ؛ أمه أنثوسة كانت من نجار يوناني محض . حين ظهور يوحنا في العالم ، بين عامي ٣٤٤ و ٣٥٤ في تاريخ يصعب تعيينه بين ذينك الحدين ، كانت بُنَيَّةٌ قد نشرت الفرح في بيت القائد .

سكوندوس مات بُعيد ميلاد ابنه ، فبقيت أنثوسة أرملة ، في العشرين من عمرها ، مع ولديها . ما لبثت البنت أن ماتت ، وأبت الأرملة الفتاة زواجاً ثانياً ، فوقفت كل ذاتها على تهذيب ابنها . وقد فسر سلوكها هذا ليبانيوس ، أستاذ الخطابة الشهير ، القليل الميل إلى الإعجاب بالمسيحيين ، على صيحة الغيظ هذه : « لله در النساء عند النصارى ! »

يوحنا ، في كتابه « على الكهنوت » ، قد جعل هذا الكلام على لسان أمه : « يا ابني ، وفقاً لإرادة العناية الإلهية ، لم أستطع الاستفادة الطويلة من قوة أبيك ، فقد ولي موته الأوجاع التي عانيتها حين ولدتك . تلك العناية قد صيرتك قبل الأوان يتيماً ، وجعلتني أرملة مع كل مشاقّ الترمل التي لا يجيد معرفتها غير اللواتي اختبرنها . إن الكلام لعاجز عن وصف العواصف والزوابع المنقضّة على صبيّة غادرت بيت والديها من زمن قريب ، وهي عادمة الحنكة في الأشغال ، ثم يصيبها فجأةً حداد لا يُطاق . فترى نفسها مضطرة إلى مجابهة هموم أثقل جدًّا مما يستطيع حمله سنها وجنسها . يجب عليها أن تصلح كسل الخُدام وتنتبه لخبائثهم وتُبعد الفخاخ التي تنصبها العائلة ، وتحتمل بشجاعة إهانات الجباة

ومطالباتهم فى شأن دفع الضرائب . إذا خلّف الفقيد يتيمة ، فلا شك أن الأم تُعنى بها كل العناية ، غير أن النفقات والمخاوف تكون أخف وطأة . أما الابن ، فهو بعكس ذلك ، سبب دائم لمخاوف يومية وهموم لا تُحصى ، بغض النظر عن النفقات الباهظة التى يتحتم على الأم بذلها ، إذا أرادت أن تهذبه تهذيباً لائقاً بالأحرار .

مع ذلك لم يقدر شىء من كل تلك العوامل أن يحركنى إلى زواج ثان ، إلى إدخال زوج آخر بيت أبيك . فبقيت فى صميم الإعصار ، فى صميم العاصفة ، ولم أحاول الخروج من حالة ترملى الهائلة . لقد ساعدنى على ذلك ، فى المقام الأول ، العون الآتى من علُ ، وقد ذقت أيضًا تعزية لا تقل عن الأولى ، بنظرى المتواتر إلى وجهك ومشاهدتى فيه صورة حية للفقيد بكل ملامحه . إذ كنتَ طُفَيلاً لا تتكلم ، فى السن التى يُلهى فيها أصغر الأولاد والديهم ، كنتَ كل تعزيتى .

أضيف إلى ما سبق أنك لا تقدر أن تلومنى لكونى قد احتملت ترملى بشجاعة أكيدة ، غير أنى ، بسبب مصاعب تلك الحالة ، قد أنقصت ميراثك ، كما يحدث لكثيرات من الأرامل لسوء حظ أولادهن . أما أنا فقد حفظت ميراثك كاملاً . بدون حذف شىء من النفقات اللازمة لتهذيبك على وجه لائق بالأحرار . قد دفعتها من مالى الخاص ، من المهر الذى أعطانيه أبى عند زواجى .

ليس فى كل ذلك ذرة من التوبيخ ، لكنى أطلب منك نعمة واحدة

تقابل بها إحسانى إليك . . . » أى نعمة ؟ ألا يترك والدته ليترهب .
على كل حال لم نصل إلى تلك المرحلة من حياته . . .

كان يوحنا قد حظى بالتهذيب اللائق بحالة ابن عائلة وجيهة . قد تلقن، وهو طالب ، تدريس أمهر الأساتذة ، وعلى الأخص ليبانيوس معلم الخطابة الشهير . وقد زعم البعض أن هذا قد سئل ، حول سنة ٣٩٣ ، قبيل موته ،من يريده بصفة خلف له ، فأجاب : « يوحنا ، لو لم يكن النصارى قد خطفوه منى ! »

الأمر الخطير هو أن يوحنا قد نال من أمه تثقيفاً مسيحياً عميقاً، مع كونه لم يقبل العماد إلا فى وقت شديد التأخر ، حين صار شاباً ، وذلك وفقاً لعادة زمانه . فلا بدع بكونه قد عاشر ذوى الرزانة من رفقائه فى الدراسة : ثاودوروس أسقف موبسوئست (Mopsueste) فيما بعد ، مكسيموس الذى سوف يجلس على كرسى سلوقية فى أيزورية ، وعلى الأخص باسيليوس الذى سيكون هو أيضاً أسقفاً ، على الأرجح لرفانية (Raphanée) . فمن الواضح أن أعداءه فى المستقبل البعيد ، مع اعتزامهم تحريك كل ساكن لطرده من كرسيه الأسقفى ، لن يجدوا أدنى مادة للتشكى منه ، حين إجرائهم تحقيقاً على سلوكه فى الشباب .

ساعة الاختيار

بعد تزوده بكل العلوم القادر على تلقينها أساتذة زمانه ، من فلسفة وعلم الطبيعة والطب ، وتمهره فى كل تمارين فن الخطابة وقواعد النحو ، تحتم على يوحنا اختيار مسلك لحياته ، وكان عندئذ ابن ثمانية عشر عاماً . بلاّديوس ، وهو من كُتّاب سيرته ، يقول لنا إن يوحنا لم يعكف على دروسه إلاّ للتمكن من دراسة الأسفار المقدسة واللاهوت ، فإنه لم يُقم وزناً لغيرها . يوحنا ذاته يُعلمنا أنه ، منذ حين دروسه وبعد فراغه منها . قد قصد ، مثل صديقه باسيليوس ، أن يعيش عيشة صلاة ودراسة استعدادية للكهنوت . باسيليوس بادر إلى إتمام قصده ؛ أما يوحنا فتردد قليلاً إلى المحكمة ، ولم ير لزوماً للابتعاد عن المسرحيات ، ثم اعتزم أخيراً الشروع فى الدروس الكنسية . عندئذ اقترح عليه باسيليوس أن يغادرا أسرتيهما ويسكنا معاً .

فى الواقع كان يقترح عليه دخول معهد فيه شىء من مميزات دير الابتداء والإكليريكية الكبرى وبيت الرهبان ، وكان مؤسسه فى أنطاكية ، حول سنة ٣٦٠ على الأرجح ، ديودور ، أسقف طرسوس فى المستقبل . بجانب ذلك العالم الناسك كان يوجد المدعو كرتريوس وفلافيانوس خلَف ملاتيوس فيما بعد .

قبل يوحنا مشروع باسيليوس ، لكنه لم يفكر فى مقاومة أمه ، فإن أنثوسة قد وجهت إلى ابنها الكلام السابق ذكره ، وطلبت منه بإلحاح ألا يتركها . لينتظر موتها قبل إخراج مقاصده إلى حيز العمل ، فإن ذلك ما تقتضيه معرفة الجميل على حسب العدل . ومن ثم لم تُرد أن تفرض عليه الاهتمام بأشغال هذا العالم ، بل تقوم هى بأعباء جميعها ، لتمكنه من أن يعيش ، بدون هموم باطلة ، العيشة التى يتوق إليها. فرضى يوحنا بذلك وبقى مع والدته فى بيت أسرته ، واكتفى بأن يكون تلميذاً خارجياً فى مدرسة ديودور .

العماد

بيد أن أمراً خطيراً لم تُحل عقدته إلى ذلك الحين : لم يكن يوحنا معمداً ، بل لم يقيد اسمه فى جدول المستعدين للعماد ؛ وذلك من الغرابة بمكان فى شاب شديد التقوى ، قاصد أن يحيا حياة ناسك وتلميذ فى اللاهوت . كان ملاتيوس أسقف أنطاكية قد انتبه لذلك ، وكثيراً ما كان يستقبل يوحنا طوعاً . فسهل على يوحنا أن يترشح « للاستنارة » كما يقال فى الشرق . أخيراً نال العماد فى ليلة الفصح من سنة واقعة بين ٣٦٥ و ٣٧٢ . بلاديوس يؤكد لنا أن هذا الحادث كان ليوحنا بدء حياة جديدة كل الجدة . مع ذلك لم يمنع هذا التجدد يوحنا ، بعدما صار كاهناً وكُلف تعليم المقصود عمادهم ، من الاعتراف أمامهم بالذنوب وأنواع الإهمال التى اقترفها بكثرة منذ إنكاره الشخصى لإبليس .

الدروس الكنسية

بعدما قام يوحنا بواجباته العائلية وراعى العادات الكنسية ، وهو منذئذ مسيحى بمعنى هذه الكلمة الكامل العميق ، تلقى مدة ثلاثة أعوام تعليم معهد ديودور ، وكان جوهر الدروس شرحاً مواصلاً لأسفار الكتاب المقدس . كان الأستاذ يسرده ، ثم يلقى عليه التلاميذ أسئلة فى شأن النص المشروح . بعد ذلك يأتى الجدال وفى الختام يعلن المعلم نتيجته . فى تلك الآونة لم يشك أحد فى أرثذكسية ديودور : بل كان الأمر بعكس ذلك . سنة ٣٧٨ غادر أنطاكية ليصير أسقف طرسوس، وبقى على كرسيها إلى عام ٣٩١ . وقد حفظ له يوحنا على الدوام عاطفة الشكر لتعليمه .

حين خروجه من مدرسة ديودورسيم يوحنا قارئاً لكنيسة أنطاكية بوضع يدى ملاتيوس ، سنة ٣٦٩ أو ٣٧٠ . كانت وظيفته تفرض عليه قراءة الأسفار المقدسة للمؤمنين ، بيد أن خبر ذهابه إلى الجبال القريبة ليعيش مع الرهبان ، قد ذاع فجأة . . . فماذا ترى حدث له ؟

الفصل الثانى

آعوام الحياة الرهبانية

قال يوحنا : « شاع بغتةً خبر أزعجنا كلينا ، أنا و باسيليوس ؛ كان حديث القوم أن نُرقّى إلى المقام الأسقفى . حين وقفت على ذلك النبإ ، أخذ منى الخوف والقلق كل مأخذ . كنت أخشى أن أقسَر على قبول السيامة الأسقفية . وبقيت مضطرباً وسائلاً ذاتى لأى أسباب خطر مثل ذلك الخاطر فى شأنى » .

ربما كان هذا الحادث واقعياً ، ومن الممكن أن نرى فيه أسلوباً أدبياً من أساليب ذلك الزمان ، غايته أن يكون تمهيداً اتأمل على واجبات الأساقفة وأعبائهم وأخطار مقامهم . على كل حال لم تكن السيامات القسرية نادرة حينئذ . فقد عُرفت منها أمثال هى من الغرابة بمكان فى بعض الظروف . من جهة أخرى ، كان يوحنا ، بقبوله درجة قارئ ، قد انتظم فى السلك الكنسى ، وهو يعلم ذلك كل العلم . لم يكن إمكان ترقيته إلى المكانة الأسقفية ليسوءه ، بل كان يعترف بطموحه فى ذلك الشأن ، ويقرّ بأنه يفضل الخدمة الكهنوتية على الحياة الرهبانية .

قد كتب فى مؤلفه « على الكهنوت » : « كم مرة قلت ، حين عالجنا هذا الموضوع ، إننى إذا استطعت اختيار وظيفة عالية فى الكنيسة أو العيشة الرهبانية ، فإنى أفضل الخدمة الكنسية كل التفضيل ، وكان لسانى لا يكلّ فى تعظيم القادرين على حسن القيام بتلك الخدمة . فلا مندوحة للناس من التسليم بأنى ما كنت ابتعدت عن حالة رفيعة المقام فى نظرى ، لو كنت مضطلعاً بأعباء الواجبات التى تفرضها » .

الأسباب

بيد أن الوظيفة الأسقفية تكون سابقة لأوانها ؛ إذ لا يوكل قطيع السيد المسيح إلى يدى طفل أو شاب إكليريكى يجهله معظم المؤمنين ، وليس له أدنى خبرة فيما تعقّد من حوادث الخدمة الكنسية .

فضلاً عن ذلك ، إن الأسقفية والكهنوت منوطان بقداسة هائلة ، يطيل يوحنا التروى فيها ، وهو موقن أنه الآن أقل تقدماً فى الفضيلة من أن يتجاسر على قبول السيامة . وأيم الحق ، إنه يجتهد بالنسك لإماتة أمياله السيئة ، لكنه يخشى أن يُثير فى رأسه سورة الكبرياء مثلُ ذلك المقام الرفيع والمركز اللافت لجميع الأنظار . . . لا مراء فى أن العمل الراعوى برهان على حبنا للمسيح ، ومن لا يعمل شيئاً لغيره ، لا يسوغ له الافتخار بنيل الخلاص لنفسه . مع ذلك لا بد من المقدرة على سد حاجات القطيع :

وإلا فمن أخذ رعايته على عاتقه يهين المسيح إهانة ثقيلة . والأنانى ، على كل حال ، يُحكم عليه - لا محالة - حكماً أقل عنفاً منه على الراعى الشرير الذى أفضى به إعجابه بذاته إلى أوخم العواقب .

كانت هناك موانع أخرى ، ووصف يوحنا المكرر المتشائم للأخطار التى تهدد السفينة الأسقفية ، ليس من نوع الإطناب الأدبى المحض ، بل يشعر القارئ بأن الواصف يتكلم عما يعرفه وعما رآه ، بحيث يسهل عليه تحديد الأسماء والتواريخ .

كون الأسقف عرضة لشكاوى المؤمنين ونمائمهم الكاذبة ، أمر لا مهرب منه . بيد أن ما هو أكثر تشكيكاً وجود « أمهات الكنيسة » اللواتى يكدن المكايد ، بل يدعون إلى المقام الأسقفى ويعزلن عنه وفقاً لأهوائهن ، ويتقحن على إرشاد الأسقف بأقوال أشد لذعاً من التى يفهن بها لتوبيخ خُدامهن . هناك أيضًا من يدّعون أنهم نصارى صالحون ، وهم يهددون الأسقف بالانتقال إلى طائفة مزاحمة له ، كلما عمل ما يخالف ذوقهم . هناك أيضًا أقرب المؤازرين الكنسيين الساعين خفيةً للحصول على عزل الأسقف حتى ينوبوا منابه . أضف إلى ذلك الوكالة على صناديق المساعدات الخيرية التى يجب توزيعها بفطنة ، لا على أرامل ثرثارات ، مفرطات فى المطالبة ومعرّضات سلام الجماعة للخطر . هناك أيضاً مشكلة الإرشاد وطهارة الحياة المتعلقة بالعذارى المكرسات لله تعالى والعائشات فى وسط عائلتهن . وهُن . . . هناك الدائبون بلا انقطاع على الجدال، فى

الداخل ، ولهم آراء لاهوتية على أقل المسائل سهولة ، والمراطقة فى الخارج ، مع ضربنا صفحاً عن المنشقين الأرثذكس مع كونهم متطرفين ، الذين يقيمون وزناً للأشخاص بقدر ما يفعلون للعقائد ، بل أكثر من ذلك . ولم نذكر كل المصاعب فى أقوالنا السابقة . . . بيد أن ما قلناه كاف لنفهم أن الشاب يوحنا ، القارئ التابع لكنيسة أنطاكية ، قد شعر بعجزه عن مجابهة تلك الأحوال .

فيتضح من ثم أن يوحنا قد اعتزم بعد التروى ، دون تهور ، أن يختلى فى الصحراء بعيداً عن المدينة وميدانها وصخبهما . هناك يستطيع العكوف على اكتساب الفضائل التى تنقصه ، ومواصلة درس العلم الدينى . ومهما ساءت الظروف ، ولو تحتم عليه ذات يوم أن يكون رئيساً ، فليس ذلك الحمل شيئاً يذكر إذا قورن بعبء الأسقفية وبأنواع مصاعبها .

من جهة أخرى ليست « الصحراء » شديدة البعد عن أنطاكية : إذ يكفى الذهاب إلى خلوات الرهبان المشيدة بناياتها على الجبال المحيطة بالمدينة . إبراهيم قد هجر وطنه ، مما يبرهن على قوة نفسه . ليس مثل تلك الهجرة ضربة لازب ، وقد كتب يوحنا : « حتى الذين قد هربوا من الضجيج واختاروا الحياة الرهبانية ، قد فضلوا عدم الابتعاد عن الأمكنة المأنوسة . . . من جهة أخرى تبقى بعض العقبات فى ذلك السبيل : كيف يدبَّر أمر الطعام والشغل اليدوى ؟ » لن تكون أنثوسة حاضرة للسهر على كليهما ، فلا اتكال إلا على نعمة الله .

ستة أعوام اختلاء

قد عكف يوحنا على العيشة الرهبانية من سنة ٣٧٤ إلى ٣٨٠ ، على رأى بعض الناس ، ومن ٣٧٠ إلى ٣٧٦ على رأى غيرهم . بقى فى أول مدة أربعة أعوام تحت رئاسة راهب قديم ، ثم عاش سنتين عيشة حبيس مطلقة . من يفوقه إجادةً فى تحديثنا عن تلك العيشة ؟

« حياة الحبيس حياة جهاد وعمل . . . الأشغال عديدة ، مختصة فى آن واحد بالنفس والجسد ، بل تكوّن الممارسات الجسمية شطرها الأكبر . . . فإن كان الجسد غير قوى ، بقيت الروح العاجزة عن العمل بواسطته وحدها وعادمة النشاط . فيصبح الصوم الدائم ، النوم على مضجع خشن ، الإسهار ، الامتناع عن الحمّامات ، الشغل اليدوى وكل ما من شأنه أن يميت الجسم ، من الأمور المستحيلة ، لأن هذا الجسم المقصودة إماتته لا يقوى على احتمالها . . . فلا بد إذاً ، على الأقل ، من صحة ممتازة ومكان صالح للعيشة التى اختارها الحبيس ، غير مفرط البعد عن الناس ومنفرد مع ذلك ، ليجد فيه الهدوء ، ومن أحوال جوية موافقة ؛ فإن كانت مرهقة ، لم يقاس الصائم ما يكون أثقل وطأةً منها . ولا أتكلم هنا عن اللباس ولا عن القوت ، فإن الرهبان يقتنونهما بعناء شديد من شغل أيديهم .

« من اختار الحياة الرهبانية ، واقفاً ذاته على خدمة الله ، يحكم على الغضب ، الحسد ، البخل ، اللذة الجنسية وسائر الشهوات ، وهى أمراض النفس . يسهر بلا انقطاع ، فى تأمله ، على الوسائط اللازمة لتحرير نفسه من سيطرة الرغبات الدنسة ، وعقله من استبدادها العنيف ، وعلى الوسائط التى ترفع فكره إلى علو يفوق جداً الأمور البشرية ، وتمكنه من التسلط على شهواته بخوف الله . . .

« إذا أردت الإعجاب بنوع الحروب التى يحاربها الراهب ، رأيته دائباً على مقاتلة الشياطين والتفوق والانتصار عليهم ونيل تاج الظافرين من السيد المسيح . إنه لمن المعقول ، فى الواقع ، أن الذاهب إلى القتال بتأييد الله ومعونته ، وهو متسلح بأسلحة سماوية ، يرى الانتصار ملازماً له .

« إذا رغبتَ فى معرفة أسباب ذلك القتال ، فهاك إياها : الراهب يحارب الشياطين عن تقوى لله ، لكى يُرضيه ، أو عن توقه إلى انتشال المُدن والقُرى الكبرى من الضلال .

« الراهب تجده محادثاً للأنبياء ، فيزين عقله بحكمة القديس بولس ، وينتقل بلا انقطاع ، فى معاشراته ، من موسى إلى أشعيا ، ومن أشعيا إلى يوحنا ، ومن يوحنا إلى غيره . . . والحال أننا نعرف بالاختبار أن الإنسان يتخلق بأخلاق من يعيش معهم . هكذا تتشبه نفس الراهب بكيفية الحياة والعمل المختصة بالرسل والأنبياء . . . ومن ثم يجب أن نجاهر بأن الحياة الرهبانية أسعد من غيرها . . .

« الراهب يُعرف من مواظبته على تسبيح الله والصلاة إليه : زمناً طويلاً قبل صياح الديك ، يترنم بفرض الكهنة فى صحبة الملائكة ، يحادث الله ويتمتع بالخيرات السماوية . . . ثوبه بسيط ، وكذلك طعامه ؛ مؤاكلوه هم أقرانه بالفضيلة . . . فور ظهوره يأتى بعطية ما إلى الغنى وكذلك إلى الفقير ؛ فإنه يبدى إحسانه لكل الناس . بينما يكتفى بثوب واحد يلبسه عاماً كاملاً ، ويشرب الماء الصرف بمثل اللذة التى يشرب بها غيره الخمر الجيدة ، لا يطلب شيئاً لذاته ، لا قليلاً ولا كثيراً ، من الأغنياء ، بل يطلب منهم كثيراً ، وذلك ، على الدوام ، لفائدة الفقراء ، مما يفيد المعطين والآخذين على السواء . على هذا المنوال يجعل ذاته طبيب الموسرين والمساكين . فيخلص الفريق الأول من خطاياه بحثه على التصدق ، وينتشل الثانى من هوة الشقاء . . .

« يمنح كل الناس النعمة الروحية . . . يخلص النفوس التى يجور عليها طغيان الشياطين . فكل من أصيب بمحنة من ذلك النوع يسرع إلى الدير إسراع من يخشى الذئب ، فيهرع إلى الصياد المتسلح بسيف . سيف الصياد هو الصلاة عند الراهب . وكما أن الذئب يرهب السيفْ ، يرتعب الأبالسة من صلوات الصدّيقين .

« كل ذلك جميل جداً ومثير الإعجاب . مع ذلك لم تخل الأمور ، فى الواقع ، من بعض الشوائب . فإن الحياة الرهبانية كان لها خصوم يتذرعون لمقاومتها ببعض براهين تؤيد رأيهم ، لا محالة . إخوان يوحنا ،

فى أثناء اختلاثه ، قد التمسوا منها أن يؤلف كتاباً لإجابة الخصوم ، ولإيضاح كون غيرة الرهبان على نفوس الشبان النصارى الموكولين إلى تثقيفهم ، لم تكن عادمة الاعتدال بقدر ما قيل عنهما . . . كان أيضاً بعض رهبان قد رجعوا إلى العالم ، مما ساء تأثيره ؛ وبينهم من أمثال إستاجير ، من خارت قواهم من فرط النسك وتوتر عقلى بدون مراقبة كافية ، فتدهوروا فى النورستينيا الواضحة وفى فكرة الانتحار الملازمة . فلا بدع بأن كتب يوحنا « الإرشاد لثاودوروس الساقط » و « التعزية لإستاجير » .

تأليف تلك الكتب يدل على أن يوحنا ، فى حياته الرهبانية ، قد شُغل بغير العمل اليدوى المحض . فى الحقيقة قد واصل بتقشفات أثقل من السابقة ، حياة الدراسة والعمل العقلى التى بدأها حين دخوله مدرسة ديودور ، ولم يسعَ إخوانه ، الذين كان يحميهم أو يمدحهم فى مؤلفاته ، إلا أن يفرحوا بها .

على أنها كانت ، فى الآن ذاته ، تعرّف يوحنا . فاستحسن ، للتخلص من الشهرة ، أن ينزوى وحده فى مغارة . وقد عاش عيشة الحبيس هذه مدة عامين ، وهو يتعدى بالسهر حدود الاعتدال ، ويتعمق فى درس الكتاب المقدس ، ويصوم بإفراط . . . وقد نتج عن ذلك زوال صحته الكامل والنهائى . فلم يبق له مناص سوى النزول الى أنطاكية ، وقد فعل ذلك .

على كل حال ، كان نزوله خيراً من عدمه ، فقد أتاحت له العناية أن يعود إلى دعوته الحقيقية ، إلى الخدمة الكنسية ، بدون إثارة الاستغراب . ربما قد فهم منذئذ ما علّمه فيما بعد : « خير للإنسان أن يكون أقل فضيلةً ويهدى غيره من أن يسكن على الجبال ويرى إخوته يهلكون ! » العيشة الرهبانية جيدة جدًّا ، والكنيسة فى حاجة إلى الرهبان ، بيد أن الخدمة الكنسية أمر أكمل ، لأنه يُحدث خلاص القريب .

الفصل الثالث

الشماسية الإنجيلية (٣٧٦ أو ٣٨٠ – ٣٨٦)

حالة الجماعة

إذ كان يوحنا مقيماً بين الرهبان ، مازالت حالة جماعة نصارى أنطاكية تتفاقم من حيث الانشقاق . كانت الهرطقة ظافرة ، وهو أمر مؤسف ؛ وما هو أشد إيسافاً – إذا شاركنا باسيليوس القيصرى فى قوله – هو « أن الأرثذكسية كانت منقسمة على ذاتها » . على رأى باسيليوس هذا ، كان العدو يثور ثائره على أنطاكية لينتقم من أنها قد كانت منشأ اسم المسيحيين .

ملاتيوس ، بعد نفيه الثانى ، كان قد حصل على معاضدة باسيليوس والاتحاد الكنسى به ؛ وهذا اجتذب أثناسيوس إلى قضيته . أثناسيوس حاول أن ينال من دماسيوس بابا رومة تحقيقاً مُتقناً وخالياً من المحاباة على حقوق ملاتيوس وبولينوس وزلاتهما . بيد أن المدافع العظيم عن إيمان نيقية قضى نحبه فى مايو ٣٧٣ ، وكان بطرس ، خلفه على كرسى الإسكندرية ،

يعد ملاتيوس هرطوقياً ، مما جر عليه هذه الملاحظة اللاذعة من قبل باسيليوس : « دوروتاوس قد أحزنني جداً حين أخبرني أن زميلينا الفائقي التقوى ملاتيوس وأوسابيوس قد عُدا من الأريوسيين في نظر سيادتك والأسقف داماسيوس المبجّل . ولولم يوجد برهان آخر على أرثذكسيتهم ، لكانت الحرب التي ناصبهم بها الأريوسيون دليلاً غير زهيد على إيمانهم المستقيم في عين من يحسنون تقدير الأمور . مجرد كونكما كليكما قد عانيتما المحن ذاتها في سبيل السيد المسيح ، يحتم على شفقتك الاتحاد بهما في الحب المتبادل . يجب إيقانك ، أيها الموقر ، أن ملاتيوس وأوسابيوس قد وعظا على الدوام ، بحرية القول التامة ، وفقاً للإيمان الأرثذكسي الكامل . إن الله لشاهد على ذلك ، وأنا الذي سمعتهما . من جهة أخرى ، ما كنتُ قبلتهما في الاتحاد الكنسي بي ، لو اكتشفت نقصاً في إيمانهما . على كل حال ، لنضرب صفحاً عن الماضي ، إذا شئت ، ولننظر إلى المستقبل . . . »

ماذا كان موضوع التلاوم بين نيقاوي ملاتيوس ونيقاوي بولينوس ؟ أواه ! إن باسيليوس قد علمه كل العلم : « مع مرور الزمان كانت الأثرة قد تأصلت في النفوس . . . » فلم يتسع المجال إلا « للتهمة المتبادلة والمجادلات المتضادة وتصفية الحسابات الشخصية ، وجميعها شكاوى مبنية على الواقع أو على الوهم » . كل ذلك كانت تنبغي تسويته على حسب اللياقة وشرائع الكنيسة .

شتان ما بين ذلك السلوك والواقع : الاتهامات بالهرطقة التى كان يتبادلها بتواتر الملاتيوسيون والبولينوسيون ، كان أساسها الأصلى اختلاف التعبير اللاهوتى فى بيان الحقيقة عينها ، فيما يتعلق بالثالوث الأقدس ؛ ونرى أن الأصوب هو امتناعنا عن إدخال القارئ فى تلك المنازعات المنقضى عهدها . كانت اليد الطولى لباسيليوس والكبادوكيين فى تحديد الاصطلاحات وإزالة أنواع سوء التفاهم .

كأن حزبين فقط غير كافيين لإحداث الشقاق بين النصارى النيقاويين ، قد استحسن أبوليناريوس أسقف اللاذقية ، الذى كانت له ، بلا مراء ، آراء شخصية على شخص المسيح ، لما يتكلم عنها ، أن يتدخل بين الملاتيوسيين ويفصل بعضهم ، ويعطيهم حول سنة ٣٧٥ أسقفاً يدعى فيتال ؛ ومن الطبيعى أن فيتال ورعاياه ينحازون فيما بعد إلى أبوليناريوس ، فيأبون تكذيب رأيهم .

إذ ذاك حدثت تعقدات أخرى : بعدما شكى أبوليناريوس وفيتال ، بصفة هرطوقيين ، كلّف داماسيوس بولينسَ إجراء تحقيق على فيتال وتعاليمه ، والاعترافَ بأرثذكسية أساقفة الشرق بقبولهم فى الاتحاد الكنسى به ؛ فكان ذلك تصريحاً مضمراً بأن بولينوس هو أسقف أنطاكية الشرعى الوحيد . وقد أفرط البولينوسيون فى الافتخار بظفرهم وجرحوا عواطف الملاتيوسيين ، وشككوا الأساقفة الخاضعين لكرسى أنطاكية ، لأنهم كانوا محقين بعدّهم بولينوس دخيلا . فغضب باسيليوس ؛ كان عالماً

كل العلم أن الغربيين « يجهلون أحوالنا جهلاً مطلقاً ، وأن البولينوسيين يخبرونهم بما يوافقهم ، بدلاً من الحقيقة ، بيد أن الكيل قد طفح . فكتب للغربيين بقصد الاحتجاج حول أواخر عام ٣٧٥ ، بلا جدوى على كل حال .

ولم تقف الأمور عند ذلك الحد . أبيفانوس السلاميني ، الشديد المحاربة للهرطقات ، وهو أوفر غيرةً منه ذكاءً ، قد وصل إلى أنطاكية فى نهاية سنة ٣٧٦ لتحقيق تعاليم أبوليناريوس . فاتحد بالبولينوسيين اتحاداً كنسياً بدون استطاعته تجريم أرثذكسية ملاتيوس ، وظن من واجبه اجتذاب باسيليوس إلى قضيته ، وفى ذلك من فرط السذاجة ما فيه . فأتاه من باسيلوس هذا الجواب : « إن أسقف أنطاكية المبجل هو ملاتيوس على رأيى ؛ إذ أنه أول من دافعوا بجسارة عن الحقيقة ، وقد أبلى بلاءً حسناً على عهد الإمبراطور كونستانس . هو متحد بكنيستى التى فى قيصرية ، وهى مشغوفة به لنضاله الشجاع والمظفَّر . بنعمة الله نحن متحدون حتى الآن به فى الإيمان ، وسنبقى على ذلك إن شاء الله . من جهة أخرى كان البابا أثناسيوس الطوباوى ، الآتى من الإسكندرية ، واضح الرغبة فى عقد الاتحاد الكنسى به ، غير أن خباثة بعض المستشارين قد جعلته يؤجل إنشاء ذلك الاتحاد ؛ فليت العناية الإلهية حالت دون وقوع تلك المصيبة ! نحن لم نقبل قط فى الاتحاد بنا شخصاً واحداً ممن خلفوه على كرسيه ، لا لكوننا رأيناه غير جدير ، بل لأنه لم يكن لنا

أدنى داع للحكم على ملاتيوس . مع ذلك قد سمعنا من زملائنا عدة شكاوى عليه ، غير أننا لم نصدقها ، لأن المشتكَى عليهم لم يمثُلوا بحضرة المشتكين ، مما يخالف الكتاب المقدس » .

لكن الأحوال قد تحسنت ، سنة ٣٧٨ ، لمصلحة ملاتيوس : قد أفضت الأمور بداماسيوس إلى عدم عده هرطوقيًّا ، فأشار عليه بالاتفاق مع بولينوس ، وبعد ذلك يبقى وحده أسقفاً آخرُ من يظل فى قيد الحياة من القرنين ، فتسوَّى الشؤون خير تسوية . كان هذا التدبير ماهراً ، وإن لم يمكن العمل به . منذ عام ٣٧٩ اقترح ملاتيوس على بولينوس أن يتشاطرا إدارة الأبروشية ، بل خطر بباله خاطر رقيق ، وهو اعتبار كون الإنجيل يشغل مكان العرش الأسقفى ، فلا يجلس كل أسقف إلا على أحد جانبى السيد المسيح ، الممثَّل هكذا بصفة الرئيس الحقيقى لكنيسة أنطاكية . فأبى بولينوس بتعجرف ، وتفاقم القتال بين الملاتيوسيين والبولينوسيين . لم يكن لهؤلاء الشأن الأسنى فى عين الغرب . أما ملاتيوس فقد دخل فى الاتحاد برومة ، وقد نفت بولينوس من الاتحاد بها ، بحيث بات الحزبان النيقاويان ، من وجهة النظر المحلية ، على انشقاق وتضاد أشد منهما فى الماضى .

الشمّاسية الإنجيلية

هكذا كانت الظروف غير الزهيدة الاضطراب ، حين أتى يوحنا ، وقد ساءت صحته بدون أمل تحسن ، ليستعيد وظيفة قارئ فى كنيسة ملاتيوس .

منذ عام ٣٨١ ، قبل السفر لأجل المجمع المنوى انعقاده فى القسطنطينية ، بأمر الإمبراطور ثاودوسيوس ، والذى كان يجب أن يتصدره ملاتيوس فى غياب أسقف الإسكندرية ، منح هذا يوحنا درجة شماس إنجيلى . يوحنا جثا أمام المذبح ، وحظى بوضع يدى الأسقف ، ثم أعلِن اسمه فى المجلس الكنسى ، فنال مقامه بين زملائه فى « الشماسية بيسوع المسيح » .

ملاتيوس قد مات فى أوائل المجمع ، وكان الشرق قد عده دائماً الراعى الشرعى الوحيد لأنطاكية . أكان المقصود بعد وفاته الرجوع إلى رأى الغربيين بعدّ بولينوس خلَفه عن حق كامل ؟ كان البعض يريدون ذلك ، وهم يأبون أن يعتبروا كون بولينوس قد سيم أسقفاً بخلاف القوانين المقدسة ، وقد سلك سلوكاً مكروهاً مع استعداد ملاتيوس للتساهل ، فلا يقبله الملاتيوسيون أبداً بعد ذلك السلوك . أما غيرهم ممن يفوقونهم تبصراً ، فكانوا يقترحون اختيار الكاهن فلافيانوس لجعله أسقف أنطاكية ، وهم يضربون صفحاً عن بولينوس وصعوبة مراسه .

بعد ختام المجمع عاد كلٌ من الشرقيين إلى أبروشيته، فأقيم انتخاب وانتُخب فلافيانوس وسيم أسقفاً منذ سبتمبر أو أكتوبر عام ٣٨١ . فاحتج بولينوس لدى رومة والغربيين وعُد محقًّا . بقي الشرقيون متحدين بفلافيانوس ؛ أما الغرب ومصر وقبرس وبعض كنائس بلاد العرب ، فأخذت تتحد ببولينوس . لم يكترث فلافيانوس لذلك ، بل أبى على الدوام مجادلة بولينوس ، لئلا يبدو منه أدنى تسليم بأن حقوق الأسقف الشرعي المختصة به ، قابلة للجدال .

خدمة الشماس الإنجيلي

قد قام إذاً يوحنا بوظائفه ، بصفة شماس إنجيلي لأنطاكية ، تحت أسقفية فلافيانوس ، أستاذه القديم في مدرسة ديودور ، وبراحة ضمير كاملة ، مدة خمسة أعوام ، من ٣٨١ إلى ٣٨٦ . كانت في الآن ذاته وظائف مختصة بالطقوس وكذلك بالمؤازرة ، إذا طلبها الأسقف .

في الشرق ، حتى الوقت الحاضر ، وظيفة الشماس الإنجيلي أبرز جداً منها في شمامستنا الغربيين المعاصرين . فكان يوحنا، بصفة شماس ، وهو لابس الحلة البيضاء وواضع البطرشيل على كتفه اليسرى ، يرأس الصلاة في الاجتماعات الكنسية . قد صدرت منه التنبيهات التقليدية : اسكتوا ! انتبهوا ! فلنرتل كلنا معاً ! اخرجوا . أيها المستعدون للعماد ! أغلقوا الأبواب ! لنحن رؤوسنا أمام الرب ! لنتبادل القُبلة المقدسة !

قد اقترح نيات الصلاة ، وقرأ جداول أسماء الأحياء والموتى ، وتلا الإنجيل علانية ، وأتى « بالعطايا المقدسة » إلى المذبح فى أثناء تطواف التقدمة ، ونشر الأغطية على المذبح ، وهو نائب فى ذلك مناب الملائكة خُدام اللاهوت ، وفقاً لتعاليم ثاودوروس الموبسوئستى ، رفيقه القديم فى الدراسة . قدم الإبريق للأسقف والكهنة لأجل غسل الأيدى ، وحرك المراوح الطقسية فوق الأعراض القربانية المقدسة ، أو بقى فى المعبد مجاوراً للمذبح وممثلاً للملائكة الموجودين فى قدس الأقداس . بعدما يصير كاهناً ، سيذكر نص بعض الصلوات التى ترنم هو ذاته بها ، بصفة شماس إنجيلى . قدمها يجعلها خليقة بالإجلال ؛ فلنذكر شيئاً منها : فلنصل لأجل الأسقف ، لأجل شيخوخته ، لكى تحمينا صلاته ، حتى يعظ بالتعليم القويم وعظاً لائقاً ، ولأجل جميع الأساقفة الموجودين هنا وفى العالم أجمع » .

وهذه الصلاة أيضاً : « أنتم ، المستعدين للعماد ، صلوا إلى ملاك السلام ؛ اطلبوا أن تكون جميع أشغالكم سلمية ، سلمية فى اليوم الحاضر وكل أيام حياتكم ؛ اطلبوا أن تكون ميتتكم مسيحية ، فإنما الأمر الجميل المفيد هو أن تمثلوا بين يدى الإله الحى ومسيحه » .

هل أهب يوحنا للعماد المترشحين له ، كما فعل الشماس الإنجيلى الذى تكلم عنه فى ميمره السادس والأربعين على أعمال الرسل ؟ على كل حال قد قام بوظيفته حين الحفلات العمادية ليجرد المترشحين عن ثيابهم

القديمة ، وينزع منهم مناطقهم ، ويدير وجوههم إلى الغرب عند إنكارهم للشيطان ، ويحولها إلى الشرق حين مجاهرتهم بتعلقهم بالمسيح. قد عُنى أيضاً بدهن كل جسم الرجال بالزيت قُبيل عمادهم ، بينما كانت الواقفات ذواتهن على خدمة الكنيسة يفعلن مثل ذلك بالنساء .

هل فُرضت عليه وظائف مساعدة الفقراء ؟ لا ندرى . أما إدارة المصالح المادية ، فكانت من أعباء رئيس الشمامسة على الأخص ، وكان يوحنا قليل الميل إلى مثل تلك الشؤون . قد كثُر دخل كنيسة أنطاكية المختص بالمعوزين ، ومع ذلك ، فإن يوحنا عادم التحمس حين يعالج هذا الموضوع : إنه يوبخ عامة المؤمنين على إهمالهم فى هذا الشأن ، مما يقسر الإكليرس على الاهتمام به ، مع وجوب قيامه بأمور خير من ذلك .

الأشغال العقلية

بين الخدم الطقسية والجلسات فى مكتب المساعدة للفقراء ، إذا كانت له حصة فيها ، كان ليوحنا بعض أوقات الفراغ ، وقد عرف كيفية الاستفادة منها بالشغل : إذ كان لا يعظ ، لأنه شماس إنجيلى فقط ، كان يكتب فى مواضيع الدفاع عن الإيمان أو على الحياة المسيحية .

يثبت حقيقة النصرانية للوثنيين ، بواسطة براهين لاهوتية ، كما فعل فى « إثبات ألوهية المسيح » ، أو برواية الحوادث الأليمة التى جرت ليوليانوس الجاحد سنة ٣٦٢ ، بعد إهانته لبقايا جثة القديس الشهيد بابيلاس فى دفنة ، من أرباض أنطاكية ، وذلك موضوع « المقالة على الطوباوى بابيلاس » .

أما المؤلفات على النسك أو الحياة المسيحية ، فهى أخطر شأناً . الكتابان « على الندامة » المكتوبان إجابة لإلحاح الراهب ديمتريوس ، يُقصد بهما إعادة الروح الإنجيلية إلى كل مسيحى . تلك الروح التى ينساها الناس ببعض الإفراط بدون انتباه لذلك ، بل بدون التألم منه . « هو مرض قد أصابنا جميعاً . . . فلا يوجد أحد ذو إيمان كامل السلامة . إصابة البعض أثقل ، وإصابة غيرهم أخف . على أن جميعهم مصابون ، وليس من يأتى بالمعونة لمعالجة ذلك الداء . فإذا جاءنا غريب وعرف وصايا المسيح واختلال حياتنا . فلا أدرى ألعله لا يظن أن ليس للمسيح أعداء ألد منا ، فإن الطريق التى نسلكها ـ من شأنها أن تجعله يسأل ذاته ألا نريد أن نكون بعكس طريق وصاياه !

عندئذ يعيد يوحنا الواجبات المفروضة علينا فى عظة المسيح على الجبل ، ويتحقق بتوجع شدة احتقار المسيحيين لها . ذلك الوصف جدير بمتضلع من علم الأخلاق ، ومن ثم تشوبه المبالغة فى التعبير . غير أن الدواء بين يدينا ؛ فلنقتد بالنصارى المثاليين ولنقتف آثار القديس بولس .

لنحتقر الخيرات الأرضية ونتوق إلى الخير الأسمى دون سواه . فلنعترف بذنوبنا ونبك عليها ؛ فلنخف على خلاصنا ونطلب من الله حفظ وصاياه .

الكتاب « على البتولية » تابع لتقليد أدبي وتعليمي كامل الرسوخ . في أول الأمر يشجب يوحنا على وجه حازم جازم موقف بعض الهراطقة الذين يحتقرون الزواج ويحرمونه بناءً على المبدإ المطلق المناقضة للنصرانية ، وهو أن الجسد ، لكونه ماديًّا ، هو شيء سيئ بجوهره ، وبذلك الرأي « يشرع في محاربة الله وإهانة حكمته اللامتناهية » . بما أن البتولية ، في جوهرها ، « لا صالحة ولا سيئة ، بل تستمد قيمتها من نية ممارسها » ، لا يمكن أن تكون البتولية المحفوظة عن احتقار للزواج ، الذي أنشأه الله في حكمته ، إلا مرذولة عنده . هي بتولية لا تزيد قيمتها عن بتولية الخصيان !

بعد إجادة إثبات ذلك يؤكد يوحنا أن الزواج أمر صالح وحميد جداً إذا حسن استعماله ، على كونه أدنى قدراً من البتولية . فهو من ثم مساغ لكل الناس ، بينما البتولية ، التي اكتفى المسيح والقديس بولس بالتوصية بها ، ليست مختصة بسوى القادرين على « الخوض في معاركاتها » . تفوق البتولية ، على قول بولس ، صادر عن كونها تحررنا لأجل الله ، بيد أن الزواج يقيدنا بعراقيل هذه الأرض . وهنا يسهب يوحنا بشيء من الإفراط الثقيل في وصف تلك العراقيل . . . علاوةً على ذلك ، ليبرهن أن البتولية أسمى من الزواج ، يبني حججه ، مثل عدة مفكرين في زمانه ، على

كون الزواج ، وفقاً لشهادة التوراة ، لم يوجد إلا بعد سقوط آدم وبصفة عاقبة من عواقبه ؛ وهى نظرية غير زهيدة الغرابة تقتضى من أصحابها معجزات من التفنن لتظهر مقبولة . . . إذاً يمارس البتولية من يقوى عليها ، وعلى هذا المنوال يكون قد سبق على هذه الأرض أوان الظهور الثانى للمسيح والحياة الملائكية التى لا بد أن تليه ، فيصبح بتولاً « لأجل الملكوت » .

المقصود من الكتيب « إلى أرملة شابة » تعزية زوجة ترازيوس . يوحنا ، بعد ملازمته الصمت حيناً ، عن احترام لحزن الفتاة المعقول ، مزمع أن يقول لها إن الترمل حالة أجدر بالتوقير والإكرام منها بالشفقة ، مهما كان رأى عامة الناس فيها . والبرهان على ذلك أوامر القديس بولس فيما يختص بالأرامل وإعجاب الوثنيين بالأرامل المجابهات بشجاعة مصاعب حالتهن .

على كل حال لماذا البكاء بإفراط ؟ ترازيوس متمتع بالسعادة . ثم قدرة الحب من شأنها أن تجمع وتربط المنفصلين ، بحيث لا يستطيع الزمان ولا المسافة ولا شىء آخر فى العالم ، أن يكسر أو يرخى القيد الذى يوحد المتحابين . فلتكف إذاً الأرملة الشابة عن البكاء على زوجها ، ولا تأسف على الفوائد التى كانت قد نجمت فى المستقبل عن حالتها بصفة زوجة سعيدة لرجل ميمون المصير .

يعود يوحنا إلى معضلة الترمل فى كتيب عنوانه « الزواج الوحيد » . هذا رأيه : بدون استهجان الزواج المكرر — وهو ما لم يفعله الرب يسوع

ولا القديس بولس — يعدّ يوحنا ذلك الزواج أدنى مقاماً من حالة الترمل، التى هى أكمل لأنها تمكّن الأرملة من حصر أفكارها فى الله تعالى. هنا أيضًا، بعد ما أدلى ببراهين عقائدية لا مراء فيها، يشدد يوحنا لهجته فى بعض التفاصيل وفقاً لمذهب الواقعية: الزواج المكرر دليل على النهم فى ملاذ الحواس؛ هو فى الآن ذاته عدم الأمانة للفقيد وللزوج الثانى، ويكون صاحبه عرضة لعراقيل عائلية مع أولاد الزواج الأول وأسرتى البعلين . . .

المؤلّف على «المجد الباطل وتهذيب الأطفال» — وربما وُضع فى ذلك الحين — يزوّد الوالدين النصارى بنصائح رشيدة وأمثلة موافقة فى شأن التهذيب.

أخيراً عندنا من تلك الآونة الكتب الستة على «الكهنوت» التى ورد كلامنا عنها فى الفصل السابق. فلنلاحظ أن كلمة كهنوت هنا تعنى الأسقفية لا القسوسة المحضة. يوحنا يعظّم سمو الحالة الكهنوتية — وذلك يشمل أيضًا الكهنة — والمزايا التى تقتضيها والفضائل التى تطالب بها والأخطار الملازمة لها. يتأمل فى مصاعب رئاسة كنيسة أبرشية، ويبيّن ضرورة العلم اللاهوتى والخطابة الحقيقية؛ فى كل الكتاب الخامس يوجد تأليف على الوعظ. هذا الكتاب الرائع قد غذّى تأملات أجيال من الكهنة، ولا يزال جديراً بتأمل الإكليرس، ولا نعنى بذلك تحريم قراءته لعامة المؤمنين.

الفصل الرابع

الكهنوت (٣٨٦ – ٣٩٧)

السيامة

بعد تلك الأعوام الخمسة الملأى بالخدم الشماسية، رُقى يوحنا إلى الكهنوت بوضع يدى فلافيانوس ،سنة ٣٨٦ ، قبل ابتداء الصوم الكبير ، بلا شك . أقيمت الحفلة بحضرة الجم الغفير المحتشد فى الأعياد الكبرى. كان الناس يتزاحمون ليروا الكاهن الجديد القصير القامة، ذا الجبين العالى المغضّن الشديد الجلَه،جبين المفكر، ذا اللحية الخفيفة الموخوطة جداً، ذا الوجه المهزّل من كثرة الأصوام والممارسات النسكية، ذا العينين الحادتين الغائرتين فى محجريهما والمشتعلتين بالذكاء .

كان القوم يعرفون طبعه الحار ، إن لم يكن سريع الغضب ، وكانوا معجبين بقداسة سيرته . كانوا يعرفونه ملتهباً بالغيرة، رزيناً، قليل الاهتمام بافتتان الناس أو إرضائهم ،عاجزاً عن إخفاء فكرته بتعابير فطنة أو ملطّفة. بيد أنهم كانوا أيضاً واقفين على بساطته ولطف استقباله وبذله المطلق لذاته . وإن لم تكن هذه السيامة – والأمر شبه أكيد – سوى خطوة نحو المقام الأسقفى ، فقد كانوا موقنين أن يوحنا لن يكون البتة أبداً

أسقفاً يتزلف إلى الملوك ، وتجتذبه السياسة وأنواع افتتانها ومخاطراتها .

لكل هذه الأسباب ربما قال بعضهم إنه متكبر ، مما يدل على عدم معرفتهم إياه . إن نبالة الخلق ، لكونها نادرة ، تحمل مراراً عديدة على الكبرياء . . . كل الناس فى أنطاكية كانوا يعرفون يوحنا .

لقبول السيامة مثل يوحنا بين يدى أسقفه أمام المذبح ، وثنى ركبتيه ليحظى بوضع يدى الحبر ، وقد أعلن اسمه للجمهور . ثم أعطى يوحنا الأسقف وإخوانه الجدد قبلة السلام ، وكان أول المرتقين معه إلى الرتبة الكهنوتية فى إقامة قداس السيامة مع أسقفه . أخيراً وعظ المرة الأولى وفقاً لجميع أصول هذا النوع من المواعظ :

« ما حدث لنا من هنيهة ، أهو واقعى ؟ أهو حقيقة أم وهم خلاب وحلم مولود من نومنا ؟ أنحن فى النهار ؟ أنحن فى يقظة ؟ من يقدر أن يصدق أن فى رائعة النهار ، إذ يكون جميع الناس معتدلين فى شرب المسكرات ومتيقظين ، قد رقى شاب خامل عادم الشهرة إلى ذروة مقام عال كهذا ؟ فلا يبعد أصلاً عن الحقيقة ألا يحدث مثل هذه الأمور فى سوى المنام ! . . . مع ذلك قد جرى كل هذا ، قد تم كما رأيتموه » .

وقد استعان يوحنا بصلوات الجمع المحتشد . لأنه لم يترك هدوء خلوته إلا لأجل الكنيسة . ثم شكر الله ومدح الأسقف فلافيانوس . وذكر الحاضرين ملاتيوس بلون إسهاب ، وختم كلامه بطلب صلوات الكل حتى يقوم بخدمته الجديدة قياماً لائقاً .

الخدمة الكهنوتية

يجب ألا نتصور حياة يوحنا الكهنوتية شبيهة بحياة خوارنتنا ونوابهم والكهنة القائمين بخدمة دير أو نحوه . حتى بحياة الرهبان الكهنة أعضاء رهبانياتنا الكبرى والصغرى . يوحنا من جملة جماعة الكهنة المؤازرين للأسقف فى مهام وظيفته الشتى . يقيم القداس معه . وحين غياب الحبر ، يقيم القداس مع زملائه فى نوبته . له حصة الكاهن فى الوظائف الطقسية المختلفة . بصفة عضو فى جماعة الكهنة ، هو من أعضاء المجلس الأسقفى ، فيُطلب رأيه فى الظروف التى لها بعض الخطورة ، وإلا فنى إنجاز الأشغال المألوفة . يمكن أن تفوَّض إليه النيابة عن الأسقف فى إدارة رعية من رعايا الأرباض أو الأرياف . لكن هذه الوظيفة تكون مقصورة على منح بعض الأسرار وإلقاء المواعظ . لم توكل تلك المهمة إلى يوحنا . لأن صفوة الكهنة لم تكلَّف مثل تلك الوظائف . بل كان الأسقف يحفظ فى جواره من تجعلهم مواهبهم الممتازة أوفر فائدة له . سنة ٣٩٢ سيتحقق يوحنا ، بكل السذاجة ، أن أقصر أعضاء جماعة الكهنة باعاً يخوَّلون وظيفة منح العماد . بينما الوعظ المؤهب للعماد مختص بأسمى الكهنة فى المناقب . من زمن بعيد قد عرف فلافيانوس أن الله قد جاد على يوحنا بعطايا كثيرة ،

فلا بد أن يعظ ، وذلك أخص مهامه .الخدمة بالكلام ، العمل بواسطة الكلام ؛ ذلك يكون شغله الشاغل .

أوائل الخطيب

منذ الاثنين ١٦ فبراير ٣٨٦. الأول من الصوم الكبير ، افتتح يوحنا خدمته بشرح سفر التكوين الذى كان يُقرأ فى تلك الحقبة الطقسية من السنة . لم يكن السامعون نصارى مستقيمى الإيمان دون سواهم . فإن الواعظ الجديد كان ، مهما قال عن نفسه . رجلاً ذائع الصيت ، فاجتذبت الرغبة فى المعرفة إلى سماعه مسيحيين هراطقة . هؤلاء طلبوا من يوحنا سلسلة بيانات على أنواع التباين بين الإيمان النيقاوى وإيمان الأريوسيين المتطرفين. من ثم ، بعد ثمانى عظات على سفر التكوين . سيلقى يوحنا تسع محاضرات على « استحالة إدراك الطبيعة الإلهية » . متتابعة طول سنة كاملة . وقد وعظ فى الفترات الفاصلة إياها ثلاث « مواعظ مضادة لليهود » وغيرها لتعظيم أولياء الله ، وبعض الميامر لعيدى الميلاد والغطاس . بما أن الجمهور كان يتوقع منه المعجزات . قيد مختزلو ذلك الزمان جميع تلك المواعظ . فنُشرت بعد انقضاء عام ، وعرف كل إقليم الشرق أن واعظاً مصقعاً كان سبب افتخار لكنيسة أنطاكية .

مشكلة التماثيل

الإمبراطور ثاودوسيوس ، فى التذكار السنوى العاشر بجلوسه على العرش — وكان أيضًا تذكار العام الخامس من مُلك أركاديوس ابنه الشاب — قد رأى من واجبه أن يأمر بإقامة أعياد كبيرة ، مما كان يقتضى ، على حسب العادة ، إهداء خمسة دنانير لكل جندى بصفة حُلوان . خزينة الدولة التى قل جداً محتواها بسبب النفقات العسكرية اللازمة لحماية البلاد ، كانت عاجزة عن مجابهة نفقات خارقة العادة وبالغة ذلك المبلغ الفاحش ؛ فتحتّم اللجوء إلى الواسطة المألوفة ، وهى فرض ضريبة إضافية .

فاستاءت الإسكندرية من ذلك استياءً غير يسير ؛ أما أنطاكية فقد استاءت كل الاستياء . وقد زادت شدته لكون ثاودوسيوس لم يجد قط الوقت اللازم للإتيان إليها ، مما جرح شعور الأهالى . فكانوا يستهجنون أنه لم يتذكر هذه المدينة إلا فى ظروف خالية من أدنى مجاملة . فضلاً عن ذلك لم ير من ليسوا جنوداً لماذا يتحتّم عليهم القيام بنفقات هدايا للجنود . فى ٢٦ فبراير ٣٨٧ قابل السكان المحتشدون جمًّا غفيراً ، بصمت كامل مشؤوم جداً ، قراءة القرار الإمبراطورى على الميدان . ثم عبّر

بعض الحاضرين عن استيائهم ، فاشتد قلق الحاكم ، لكنه أبى أن يأمر الجنود بالهجوم على ذلك الجمهور الأعزل .

بيد أن فريقاً من المتهوسين انتهزوا الفرصة لإنعاش أحقاد دينية قديمة ، فأخذوا يصرخون صرخات يتضح منها أن فلافيانوس ، الأسقف الذى يؤيده أرباب السلطة ، يجب عليه الدفاع عن قضية المدينة وطلب رفع الضريبة الإضافية عنها من الإمبراطور . يُظن أن أولئك المشاغبين كانوا بولينوسيين مبتهجين بإيذاء الجماعة المسيحية المزاحمة لهم ، على أن فلافيانوس ظل فى حرز حريز ، إمّا عن فطنة وإما عن وجه الاتفاق . حينئذ استثمر المجاهرون سرعة تهيج الجماهير الشرقية ، فاعتزموا أن يحصلوا بقوتهم على حقوقهم المهضومة ، فشرعوا بنهب الحمامات العامة ، بل اقترفوا ما هو أثقل من ذلك بهجومهم على المحكمة ، فحطّموا ودنسوا تماثيل الإمبراطور وعائلته التى تعلو المحكمة ، فجنوا جناية احتقاره . ومن الظروف المثقّلة أنهم كسّروا حتى تمثال الإمبراطورة المتوفاة ، مع كونها موضوع تبجيل كل الناس فى حياتها . وتمثال المرحوم والد الإمبراطور . مثل ذلك التعدى على الموتى كان من الآثام التى لا يمكن التكفير عنها .

لم يسع الحاكم أن يترك المجاهرين يواصلون معاصيهم . فأمر فرقة من الجيش بمقاومتهم ، فتشتتوا فور رؤيتهم الجنود . كانت المجاهرة قد دامت ثلاث ساعات ، وبعد خمود الهيجان ، ما لبث الأنطاكيون أن فهموا ثقل إثمهم . أما أرباب السلطة المحلية ، فكان همهم أن يكونوا فى مأمن من

توبيخات ثاودوسيوس التى تصيبهم إن لم يُبدلوا العنف بدون أدنى تأجيل ، فأمروا بأن تُجرى بسرعة مفرطة عمليات قبض وإعدام كان من ضحاياها فى آن واحد مسؤولون حقيقيون وأبرياء محاض .

من الطبيعى أن ذوى السلطة المحلية لم يستطيعوا كتم تلك الشؤون ، فبعثوا على الفور ببيان رسمى عليها إلى القسطنطينية حيث يقيم ثاودوسيوس . ولكن ربما أمكن ، قبل فوات الفرصة ، استغفار العاهل ، وذلك أمر عسير على من يقبل القيام به ، ففضل أعيان المدينة المشهورون الامتناع عنه . فألحّ على فلافيانوس ليأخذه على عاتقه ، وهذه المرة لم يكن الإلحاح مزحاً مشؤوماً . قبل فلافيانوس ، بصفة أسقف فُح ، توكيل مواطنيه الدال على ثقتهم به ، مع طعنه فى السن وسوء أحوال الشتاء الجوية ومرض أخته الوحيدة ، فسافر إلى العاصمة أول يوم أحد من الصوم الكبير ، ٧ مارس ٣٨٧ ، وكان آملاً أن يلحق المراسيل فى الطريق ، فلم يوفَّق إلى ذلك .

حين وقف ثاودوسيوس فجأةً ، بواسطة البيان الرسمى ، على الفتنة والجناية على جلالته ، أخذ منه الغضب كل مأخذ . وقد زاد سخطه احتداماً لكون موتى عائلته لم يحظوا بأدنى احترام . فأرسل إلى أنطاكية قائدين وفرقاً من الجنود . فلقيهم فلافيانوس ، وما عرفه من التعليمات التى زُودوا بها ، لم يكن داعياً إلى طمأنينته . فواصل سيره لمحاولة تسكين غضب الإمبراطور العادل ، وظل القائدان سائرين فوصلا إلى أنطاكية فى أول

الأسبوع الثالث من الصوم الكبير .

ماذا كان موقف يوحنا فى كل هذه القضية المحزنة ؟ فى آخر فبراير كان قد افتتح عظاته الصومية بعظة يقاوم فيها العادة المتأصلة فى أهل أنطاكية أن يحلفوا بدون انقطاع . أما الفتنة فقد جعلته يتكلم عن الاهتداء الواجب على وجه مختلف جداً . سيكون فى غياب فلافيانوس هادى المدينة ومعزيها فى تلك الأيام العصيبة .

فى أول الأمر ، مدة أسبوع كامل بعد الحوادث . قد أبى يوحنا الوعظ . فتحتم إلحاح فلافيانوس - الذى ما زال فى المدينة - ليواصل يوحنا ، فى ٣ أو ٥ مارس ، سلسلة مواعظه . وقد كرز ليصور حالة المدينة العاصمة المرتعبة . المتوقعة أسوأ العواقب . تصويراً مثيراً أشد الحزن . ثم عاد إلى موضوع وعظه الدينى المحض ، فتكلم لمقاومة البخل وكبرياء الغنى .

بين ذلك توسط بعض الناس لدى فلافيانوس ، ومن الأكيد أنه لم يعتزم شيئاً إلا فى اجتماع مجلسه الكهنوتى . جزم فلافيانوس على قبول السفارة العسيرة المقترحة عليه والمطلوبة منه . وقد حدد أعضاء المجلس معاً خلاصة البراهين الدفاعية الواجب سردها أمام الإمبراطور . ويتضح من ذلك كيف استطاع يوحنا ، حين رجوع فلافيانوس . أن يجيد بكل مواهب فصاحته ، بيان الحجج التى سردها الأسقف بين يدى ثاودوسيوس .

بعد سفر فلافيانوس مدح يوحنا أمام الشعب هذا الأسقف الراضى بالسفر لإنقاذ مدينته . مع وجود عدة أسباب راهنة كان ممكناً أن تردعه

عن الانطلاق . فأنعش يوحنا ثقة السامعين ، وتحقق أن الثورة كان لها ، على الأقل ، عاقبة ملموسة ، وهى أن الخوف قد هدى الأنطاكيين ، فسلكوا سلوكاً مثالياً ، بيد أن الثبات واجب .

فى ٨ و ٩ و ١٠ مارس غصت الكنيسة بالقوم ، ولا مراء فى أن يوحنا قد وعظ على الصوم الكبير . مع دس بعض تلميحات إلى هموم تلك الآونة . يُظن أن فلافيانوس قد وُفق إلى اللحاق بالمراسيل الرسميين . فى الواقع كان قد لقى القائدين . . . بعد ما صدّق يوحنا تلك البشارة الكاذبة . أنعش آمال نيل الغفران ، وألح ثانيةً فى ضرورة الاهتداء والثبات .

فى ١٥ مارس كان القوم عادمى الأخبار عما قرره الإمبراطور . فهاجت أعصاب المدينة . ومن جهة أخرى ثقلت عليها وطأة السلوك الصالح . فى ١٦ مارس عم الرعب فجأةً وعلت الصيحات : « ها هم الجنود ! » فتراكض الناس ليطلبوا ملجأً فى الكنيسة — أما الحاكم ، فلما سمع ضجة النوحات . بادر إلى طمأنة الجمهور . وقد اكتأب يوحنا إذ رأى أن إشاعة كاذبة قد كفت لملاشاة كل سعيه ، واستشاط غضباً لكون الظروف قد أفضت بالنصارى إلى طلب التعزية عند موظف وثنى . فاشتد نفوره وأبى أن يُضيع وقته بعدئذ فى مواعظ باطلة ، وقد ألح عليه زملاؤه ليواصل عمله فى التهدئة والتعليم .

إذ ذاك وصل القائدان ، فضرب الارتعاب أطنابه ثانيةً ، وهرب

الأهالى فاقدى الرشد إلى خارج المدينة . فقطع يوحنا فوراً حلقات عظاته . أما القائدان فقد أنفذا الأوامر ، وهى — بإيجاز القول — على جانب غير يسير من الحلم : القبض على المجرمين والمسؤولين ، انحطاط المدينة بفقدها مقامها ولقب عاصمة ، إغلاق كل معاهد الملاهى إلى أجل غير معيّن .

بدأت عمليات القبض وبوشرت إقامة الدعوى . فكان يوحنا بين الحاضرين ، يتبع الإجراءات القضائية والمجادلات . أما الرهبان فقد انحدروا من جبالهم لمجاهرة لائقة سلمية وللشفاعة فى المذنبين . ولم يذهب سعيهم سدى ، فإن القائدين قد تأثرا منه . فواصلا رفع الدعوى . لكنهما قررا عدم إنفاذ الأحكام قبل مراجعة ثاودوسيوس . فى المستقبل سوف ينتهز يوحنا فرصة تذكيره تلك الأيام العصيبة . ليذكّر الناس أنه ستوجد محكمة أخرى وقاض آخر أهول من غيرهما . سيشكر الله على كونه قد حرك القضاة والإمبراطور إلى الاعتدال ، ويعلن بصوت جهورى أن الكنيسة هى التى دافعت عن قضية أنطاكية . بينما كان جميع الأعيان والمحامين الوثنيين قد اختفوا كل الاختفاء خوفاً من خسارة حظوتهم لدى العاهل .

أما فلافيانوس فكان قد وصل إلى القسطنطينية وحظى بمواجهة للإمبراطور سوف يروى يوحنا تفاصيلها حين عودة الأسقف . ثاودسيوس كان قد بيّن للحبر فرط استغرابه الأليم للإهانات الموجهة إليه وإلى أهله . فأقر فلافيانوس بتلك الجرائم . لكنه قد أجاد التكلم ، مع ذلك ، بصفة

أسقف مسيحى يخاطب عاهلاً كان هو أيضاً صادق المسيحية . فغفر الإمبراطور وأعفى الجناة من العقاب إعفاءً تامًّا .

فى أنطاكية قد تجدد الرجاء بعد انطلاق القائدين ، ثم شاعت ثانيةً الأراجيف المرعبة ، فحاول يوحنا أن يعيد الهدوء إلى النفوس ، وقد نجح فى ذلك فوق ما تمناه . بقيت الملاعب والحمامات موصَدة . ولكن نُظمت سياحات للهو على سواحل نهر العاصى ، مع كل ما تشتمل عليه من المُنكرات . بين ذلك كان المتَّهمون المحكوم عليهم والمنتظرون العفو ، وهم لا يزالون مسجونين ، يتقحون بالاحتجاج على نظام السجن الخالى كل الخلو من الرفاهية . . . فاحتدم غضب يوحنا مرة ثانية واشمأز كل الاشمئزاز ، ولم يتمالك عن التعبير عن ذلك بكلام قارص .

ثاودسيوس ، فى جوابه لحاكم أنطاكية ، بشر أهلها بغفرانه وإعفائه من القصاص ، بأقوال معتدلة وآخذة بمجامع القلوب . وصلت رسالته إلى أنطاكية فى الأسبوع الخامس من الصوم ، فاشتد الابتهاج بها .

فى سبت النور دخل فلافيانوس المدينة النشوى بالفرح دخول الظافر . يوم الفصح ، ٢٥ أبريل ، استطاع يوحنا أن يشكر الله تعالى ، وينوّه بسلوك فلافيانوس ، ويروى تفاصيل سفارته ، ويمدح الإمبراطور على علو نفسه المسيحى . كان ذلك الخطاب ممتازاً وجديراً بالتذكار ، وقد ختم بإرشاد إلى القيامة مع المسيح ومع المدينة المجدّد تأسيسها بيد ثاودوسيوس.

إذا كان فلافيانوس قد استحق شكر الأنطاكيين ، فإن يوحنا ،

من جهته ، قد أظهر مقدرته لتشجيع مواطنيه وهدايتهم إبان المحنة . بدون تجاوز حدود وظيفته الكهنوتية ، كان قد قام بكل واجبه ولم يتملص من مصاعب مهمته .

يوماً فيوماً

ألم يكن مُحرجاً لموقف فلافيانوس مؤازره الفائق الامتياز . بل أعظم مؤازريه العبقرى ؟ النفوذ الذى اكتسبه يوحنا بمناقبه ووظائفه و بمساعدة الظروف ، وشهرته المتزايدة ، كان من شأنها أن تُقلق حتى من يفوق الحبر الشيخ بالفضيلة . لم يحدث ذلك ؛ قد كان فلافيانوس أستاذ يوحنا ، فتعارفا من زمن بعيد ، وارتبطا بقيود الصداقة .

لم يهمل يوحنا قط فرصة مدح خليفة بطرس وأغناطيوس وفيلوجون وملاتيوس على كرسى أنطاكية . ونستشف من وراء التعابير الأدبية التى يفرضها ذلك النوع من الكلام ، إعجاب الخطيب الصادق واحترامه الودود لمعلمه القديم ورئيسه وخليله . أما فلافيانوس فقد وكل فى الواقع وظيفة الوعظ إلى عناية يوحنا . إذ كان خطيباً بينَ بين ، لم يستصعب أصلاً تقريظ بلاغة تلميذه القديم . واكتفى بمواعظ قصيرة كلما تكلم فى نوبته بعد غيره ، وفقاً للعادة الطقسية المحلية . أما القرارات الواجب اتخاذها ،

فكان على الدوام يستشير فيها يوحنا على الأخص ، إذ لا غنى له عن آرائه .

إن رحابة الصدر هذه لم تكن عامة . نعلم أن بعض إخوان يوحنا كانوا يحسدونه على أنواع نجاحه ، ويحاولون إزالة حظوته عند المؤمنين . إن ذلك من مظاهر الضعف البشرى ، بيد أنه يفضى ، كما يقول يوحنا ، إلى تضرر الكنيسة والمسيح .

حين نتكلم عن نجاح يوحنا ، يجب الاعتراف بأن نجاحه بصفة خطيب ، أكثر منه فى الهداية الروحية للشعب المسيحى . . . كان أهل أنطاكية مولعين بالخطابة الجميلة إلى حد التشكى كلما حُرموها . فهم يصفقون للخطيب الفتان ، ويستسلمون لسحر خُطبه ؛ لعمرى إن هذه الخطب تأتى بثمار . . . ببعض الثمار ، طول مدة ما . لكن « الريح تذهب بها » أكثر الأحيان ، على الأخص فى الجمهور ، لسوء الحظ ؛ وقد لفت يوحنا الأنظار إلى ذلك . إذ يسوء مجرى الأمور ، يهتدى الناس بكلام الواعظ ، ومتى زال الخطر ، نُبذت التقوى وطهارة الأخلاق . لقد شوهد ذلك فى مشكلة التماثيل وفى عدة ظروف أخرى .

المؤلفات الخطابية فى تلك الحقبة من حياة يوحنا هى عديدة . سنة ٣٨٧ ، فضلاً عن الخطب السابق تعدادها ، قد ألقى يوحنا ميامره « على التوبة » و « على حنة » ، وفى عام ٣٨٨ ميامره « على سفر التكوين » ، « على خيانة يوضاس » وألقى « التعليم المسيحى » التمهيدى للعماد . على توالى السنين سنرى ظهور الميامر « على القديس يوحنا » ، « على القديس

متى » ؛ سنة ٣٩١ « على الرسالة إلى أهل رومة » ، ثم « على الرسالة الأولى إلى أهل كورنتوس » .

عام ٣٩٢ لفت إيرونيموس علانيةً نظر العالم المسيحى إلى « المقالة على الكهنوت » ، مع أنه لم يغفر ليوحنا انحيازه إلى حزب ملاتيوس . هكذا عرف الغرب أن فى أنطاكية كاهناً خطيباً من الدرجة الأولى .

بين سنتى ٣٩٣ و ٣٩٧ شرح يوحنا فى ميامره الرسائل « إلى أهل غلاطية » ، « إلى أهل أفسس » ، « إلى أهل فيليبى » و « الرسالة الثانية إلى تيموتاوس » . يتكلم أيضاً عن نصوص منفردة من الكتاب المقدس ؛ فمن الواضح أن الواعظ لا يكفّ قط عن الكرز .

نهاية الانشقاق

عام ٣٩٣ قد أتى بختام ميمون للانشقاق الأنطاكى . كان يوحنا يتألم من رؤيته انقسام نصارى أنطاكية ، كتألمه من مشاهدة زوال الاتحاد بين كنيسته والغربيين . فى نظره كما فى نظر فلافيانوس والشرق أجمع . لم يكن أدنى مجال للشك فى كون جماعة فلافيانوس هى الكنيسة الحقيقية . وجماعة بولينوس شيعة منشقة ، لا غير . ولو كان البولينوسيون أرثذكسيين . فإنهم كانوا منشقين ، وهو شر يساوى الهرطقة فداحةً ، على رأى يوحنا . لأنه بمثابة « ذبح المسيح وتقطيع جسده » .

من جهة أخرى كان بولينوس قد توفى عام ٣٨٨ ، وهو متحد بالغربيين . قبل موته قد ارتكب خطأ فاحشاً بسيامته إيفَجريوس خلفاً له ، بدون استعانته بأساقفة آخرين يشاطرونه السيامة . ولا طلبِ رضى غيره من أساقفة إقليمه . فكان ذلك خللاً محققاً حين حدوثه . ويستحيل أن تسلّم به رومة والإسكندرية . من ثم انقطع الاتحاد بين البولينوسيين والغربيين . بدون أن يؤول ذلك إلى عقد اتحاد الغرب بفلافيانوس .

حاول الإمبراطور ثاودوسيوس تسوية الأمور انقياداً لمشورة أمبروسيوس أسقف ميلانو . العاطف على البولينوسيين . كان ثاودوسيوس يجل فلافيانوس ، وقد أعظم بسالته ونبالة خُلقه . وقد بذل خير المساعى مدة ثمانية عشر شهراً ؛ استقدم فلافيانوس إلى قصره . وأشار عليه بالسفر إلى رومة لإيضاح حقوقه . فاعتذر فلافيانوس وطلب مهلة ، ثم أبى السفر إلى رومة . لأنه يأبى ، مهما كانت الدواعى المزيّفة ، أن تبدو منه أدنى علامة على تسليمه بتمكن أى شخص كان من المجادلة فى شأن حقوقه .

حينئذ خطر ببال أمبروسيوس خاطر يدل على قلة وقوفه على الشؤون الشرقية . وهو أن يعقد الإمبراطور مجمعاً من الغربيين يحكم فى هذه القضية ! فعقد ثاودوسيوس المنقاد فى كل شىء لنصائح أمبروسيوس ، مجمعاً فى كابُوَة ، عام ٣٩١ ، دُعى إليه فلافيانوس وإيفجريوس ، فقبل إيفجريوس وحضر . أما فلافيانوس فأجاب أنه يأبى أن يرى حقوقه مخضّعة لحكم زملائه، وأن الإمبراطور ما عليه إلا أن يطرده من كرسيه ، إذا

راقه الأمر . فى أنطاكية كان يوحنا ، فى ميامره ، لا يتردد فى التصريح الجهارى بأن إيفجريوس لم يكن سوى دخيل طماع يؤيده حزب أكثر أعضائه نساء .

أما الغربيون فسلكوا طريق الفطنة ؛ بما أن الشخصين المدعوين لم يحضرا ، أوفدوا ثاوفيلوس الإسكندرى ، بصفة خلف أثناسيوس ، لإجراء تحقيق فى أنطاكية واتخاذ القرار اللازم .

حين وقف ثاودوسيوس على ما اعتزمه المجمع ، كتب لفلافيانوس طالباً منه قبول ذلك . فرفض . كاد أمبروسيوس ، من جهته ، يتميز من الغيظ . مدعياً أن فلافيانوس يخشى التحقيق . لأنه يخسر به كل شيء . سنة ٣٩٣ عُقد سينودوس فى قيصرية فلسطين . فاعترف بشرعية فلافيانوس وحده . لأن سيامة إيفجريوس كانت فاسدة كل الفساد على حسب القوانين المسنونة فى نيقية عام ٣٢٥ . بُعيد ذلك مات إيفجريوس ، ولم يكن له متسع من الوقت لسيامة خلفه . فأصبح البولينوسيون منذئذ بلا أسقف ، ولم يعطهم أحد أسقفاً ، ولم يحلُ ذلك دون دوام حزبهم ورفضه الانضواء إلى الكنيسة . لن يحدث هذا الانضواء إلا سنة ٤١٣ . ولن يزول آخر المقاومين له إلا عام ٤٨٢ ، حين عودة الرماد الباقى من جثة القديس أوستاتيوس إلى أنطاكية .

منذ سنة ٣٩٤ تجدد الاتحاد بين أنطاكية والإسكندرية . وما لبث أن تجدد بين أنطاكية وروما . فساغ ليوحنا الفرح برؤية انتهاء الانشقاق ، ولم يبق إلا الصلاة حتى يصير الاتحاد الشرعى عملياً بوجهة النظر المحلية .

الفصل الخامس

رجل الكلام

ما الداعى إلى الوعظ ؟

منذ الشماسية كان يوحنا . وهو يتأمل فى الكهنوت . قد أطال التروى فى واجبات الواعظ . أتُراك تجهل أن جسد المسيح أكثر تعرضاً من الجسم البشرى للأمراض الخائنة ؟ . . . فليس سوى واسطة واحدة للشفاء ، بغضّ النظر عن قدوة سلوك لائق . وهى التعليم بالوعظ . . . فإذا كانت هذه الآلة عاجزة . بات كل شىء غيرها بلا جدوى .

هذه الأقوال جلية ، على رأى يوحنا يجب أن تكون الغاية الأولى للوعظ إصلاح أخلاق السامعين . بل أخلاق الواعظ نفسه . إذا كان محتاجاً إلى ذلك . سيعظ يوحنا على علم الأخلاق وإصلاحها بدون كلل . سواء أكانت الظروف موافقة أم معاكسة . فإنه يعرف أن القدوة الصالحة . بل موهبة صنع المعجزات غير كافيتين فى هذا الشأن ، والبرهان على ذلك مثَل بولس ذاته .

فضلاً عن هذا . ينبغى الوعظ لإيضاح الإيمان الحقيق وإلقام جميع أعدائه الحجر : الوثنيين ، اليهود . المانويين . القائلين بالقد ر الأعمى ،

الغنوسيين (algnostiques) على اختلاف أصلهم، السابليين، السامو زاتيين، الأريوسيين . . . وهواة اللاهوت من غير رجاله مع مشاغبتهم على الجماعة .

مثل ذلك الوعظ يقتضى علم ذى الجدارة مستقى من درس الكتاب المقدس والتقليد . يقتضى أيضاً إعداد الواعظ لعظاته واستعماله ، كما يطلب بولس ، كلاماً دائم اللطف ، متبـلا بملح الموافقة للظروف ، وتدريبَه فى فن الكلام البليغ ، بدون الاقتداء بالكتّاب الأدباء فى حُلى الإنشاء الباطلة ، ولا التكلم لإرضاء المولعين بالعبارات الجميلة . أخيراً يقتضى ذلك الوعظ أن يتكلم صاحبه لمجرد مجد الله تعالى بدون اكتراثه للانتقادات ولا للتقريظات .

بعد تلك التأملات ، لا بدع بأن نسمع يوحنا مصرحاً يوم سيامته الأسقفية ، فى أول عظاته ، بأن الكرز « أعظم وأسمى وأفضل كل التضحيات » المقدمة لله .

كيف يجب الوعظ ؟

من المسلَّم به منذ عهد يوحنا ، أن الذهبى الفم ، بعبقريته الخطابية المحضة ، هو شيشرون النصارى وديموستانهم ، ولم يجرؤ البتة ألد أعدائه على إنكار ذلك . قد مدح المادحون وضوحه ولباقته وصحة لغته ، وهى أمور

كان معاصروه خير الناقدين لها . في الواقع لا يسوغ لنا أن نطلب في فصاحة يوحنا الأساليب والنزعات الموجودة عند وُعاظ باريس المعاصرين في القرن العشرين . كل من يشرع في قراءة « المؤلفات الكاملة » ليوحنا ، ويطالعها من أولها إلى آخرها ، يجب عليه أن يجعل في نفسه أميال أهل أنطاكية في القرن الرابع ، فيمتنع ، لئلا يصير ضُحْكَة ، عن الصياح بملء فيه استهجاناً لعدم الترتيب الدقيق لمواد العظات ، لطلاقة اللسان المفرطة المتواصلة ، للاستطرادات الدائمة ، لفساد الذوق ، لقساوة الألفاظ أو عدم لياقتها ، للواقعية المتطرفة في بعض القطع الوصفية .

يوحنا يعظ بيقين الأنبياء والرسل وباندفاعهم ، وذلك من طبعه . يريد على وجه الإطلاق أن يعيش النصارى كما يجب أن يعيش أمثالهم ، و « يضرب ضرب الأطرش » ليحصل على ذلك . في هذا الشرق ذي الحضارة الشفهية يلجأ إلى أنواع الإعادة والتكرار ، إلى الكلام الشرس ، ثوران العاطفة القلبية ، التهكم ، الهزل ، أشد التشابيه سطوعاً ، الأمثال المؤثرة المقتبسة على السواء من الحياة اليومية والحِرف ، بل من المسرحيات والتوراة . في وسعه أن يتكلم خمس دقائق ، لكنه يستطيع أيضاً أن يتكلم ساعة ونصفاً ، فلا يسكت إلا عند خفوت صوته .

كل ذلك مصحوب حتماً بتصفيقات يكبحها يوحنا أو بأضرار ، على حسب اختلاف الظروف . إذا أفرط في شدة الضرب ، فإنه يوضح سبب ذلك ويعتذر ؛ يسلم بأنه قد أحزن سامعيه ، لكنه توخى بذلك

هدايتهم . تشبّه بعنف الطبيب أو الجراح لأجل خير المريض . قد هدد كأب صالح عارف واجب تهديد أولاده . بعكس ذلك ، إذا كانت سيرة المؤمنين حميدة ، فلا يستصعب أصلاً أن يهنئهم بها تهنئة حارة ، برقة عليها ، فى الغالب ، مسحة من المزح . كل ذلك ، الغيرة المضطرمة ، حرية القول ، أنواع التوبيخ أو الاستحسان ، علم الكتاب المقدس وفن الخطابة ، كل ذلك ما له سوى غاية واحدة ، خلاص المؤمنين ، وسبب واحد ، الحب للمسيح الذى ندل عليه بإبداء حبنا لخاصته ؛ وأى حب أعظم من مساعدتهم على تخليص نفوسهم . يسهل علينا الإكثار من ذكر الأقوال فى هذا الشأن ؛ على كل حال كل ما قلناه من هنيهة ما هو إلا استشهادنا بعبارات يوحنا نفسه .

فلنضف إلى ذلك أن يوحنا ، حين يعلّم الأخلاق الصالحة ، هو أول من يعمل فى حياته بوصايا الاهتداء والقداسة التى يعطى غيره إياها . يعلم كل العلم أن من يعظ الآخرين بدون نسك شخصى ، يقتحم خطر أن يكون مرذولاً ، كما قال بولس . يعرف أيضاً أن التجاسر على التكلم عن إصلاح الأخلاق بدون إصلاح الواعظ ذاته ، يجعل السامع يزعم أن ذلك الإصلاح يفوق استطاعة البشر ، وأن ملاحظات الواعظ أقوال فارغة .

علام يجب الوعظ ؟

ليعيش الإنسان بصفة مسيحى ، ينبغى أولاً أن يكون له رأى مسيحى فى شأن العالم ، فإن الأمرين مرتبطان . بيد أن الرأى المسيحى فى العالم ليس رأى الفلاسفة اليونانيين ؛ شتان ما بينهما .

وأيم الحق لقد تفهّم يوحنا ، فى أثناء دروسه ، نظريات الفلاسفة الوثنيين ، فهو يعرفهم ويذكر مؤلفاتهم حين يرى ذلك موافقاً . قد تحقق أن بعض مبادئهم وأساليبهم حسنة ومضبوطة ، لكون الله تعالى قد أراد ، قبل مجىء المسيح ، أن يرتقى الوثنيون إليه بالتحقل على « سِفر الكون » ، بينما كان اليهود ، بصفة شعب الله المصطفى ، مميّزين بمعرفة الناموس . لكن هذا البحث عن الله قد حبط فى الواقع بسبب ضعف الناس العقلى ، فلم يتجنب الغموض وعدم الضبط وتناقض المذاهب وفساد الأخلاق الناتج حتماً عن ذلك . الفلسفة الوثنية فلسفة قيمتها شروى نقير ، وقد ماتت ودُفنت أمام انتصار النصرانية ؛ فليس العقل البشرى ما يجب إعماله .

العقل البشرى ، فى الواقع ، ضعيف وعاجز عن الارتفاع إلى معرفة أمور الله ، بل عن حل بعض ألغاز مما يُلغز العالم المادى . التحقل المنطقى

والبرهنة لا يتوصلان إلى اكتشاف الله، فلا بد من الإيمان القادر وحده على منح الإنسان معرفة ما أوحاه الله إليه. فالإنسان، إذ يؤمن بما عرّفه الله إياه، يتعلم ما تعجز البرهنة وفنها والنظريات المحضة عن إعطائه إياه. فمن أراد الاتكال على العقل ورفْع النقاب عن السر، يضادّ الإيمان في الواقع، ويخسر الخلاص. لا نزعمن مع ذلك أن يوحنا يطلب من النصارى إيمان العادم الثقافة، فإنه لا يفوقه أحد في معرفة كون الإيمان ليس أعمى ولا مضاداً للعقل. قد تكلم الله: فكيف يأبى الإنسان الثقة به؟ بيد أن الإنسان يجب عليه أيضاً الإيقان أن الله نفسه هو الذى يكلمه. من ثم قد سوغ الله ذاته الثقة الواجبة نحوه، بواسطة الأعجوبة وتحقق النبوءات وانتصار النصرانية. الإرادة الصالحة في الإنسان تلبي إرادة الله الصالحة، لكنها — أواه! — قادرة على رفض تلك التلبية.

قد تكلم الله إذاً في الكتاب المقدس كما في التقليد غير المقيَّد بالكتابة. الكُتاب الذين ألهمهم قد بلّغوا بأمانة البلاغ الإلهي. يوحنا موقن أن الوحي لا يشمل التعليم الديني المحض فقط، بل الفيزياء، التاريخ، الكلمات ذاتها، حتى المقاطع وعلامات الوقف أيضاً. سيقول مثلاً: «ماذا تعني هذه اللفظة الصغيرة «لكن»؟ لماذا أُضيف حرف العطف هذا؟ ألا يكفي أن يقال بدونه «لأجل آدم»؟ ليس سؤالنا هذا باطلاً ولا ناجماً عن الرغبة الصرفة في المعرفة. إنما غايتنا أن نعلّمكم، بواسطة شرحنا الكامل الدقيق، أنه يجب عدم غض النظر

عن كلمة صغيرة ، ولو كانت من مقطع واحد ، إذا وجدناها فى الكتب المقدسة . لذلك لا يستحسن الأسئلة عما لم يُقل فيها وليس فى نصها . ينبغى الاكتفاء بما كُتب ، ولو كان معناه أبعد منالاً ، لأن له دائماً شرحاً صحيحاً .

يوحنا يقرأ الكتاب المقدس فى المتن العبرى وفقاً للنص الذى وضعه لوسيانوس الأنطاكى . وقد أطال درسه وتأمله وتمثيله ، فاستظهره . وهو الذى يُمده بمادة تعليمه . فيؤوله على حسب معناه النحوى والتاريخى ، ويكاد لا يستحسن أوهام استعارية (allégorisme) الإسكندريين ، مما لا يعنى أنه يرذل الرمزية التى ترى فى واقعيات العهد القديم بشارة وصورة لواقعيات العهد الجديد والكنيسة . إذا فرضت عليه الطقوس شرح بعض الأسفار فى أوقات معينة من السنة ، كسفر التكوين فى الصوم الكبير وأعمال الرسل فى الزمن الفصحى ، فإنه يفضل فى غيرها استعمال رسائل القديس بولس ، الذى قد هام به كل الهيام ، فشعر باتحاد كامل به فى التفكير والشعور . ولذلك قد ساغ القول إن بولس ، لو أراد شرح رسائله ، لما فعل ذلك على غير طريقة يوحنا .

جعلُ النصارى مسيحيين محاضاً

بناءً على ما سبق بيانه ، سيجعل يوحنا النصارى مسيحيين محاضاً على أساس الكتاب المقدس وبواسطة شرحه .

فى أول الأمر يجعل لهم رأياً مسيحياً فى شأن العالم ، فيكون ذلك ، إذا راقنا التعبير ، وعظاً عقائدياً لا يُقدم عليه يوحنا ، من جهة أخرى ، إلا ليعطى سامعيه أخلاقاً مطابقة لما يسميه « الفلسفة الحقيقية » ، الحكمة الحقيقية ، وبتعبير آخر ، الآداب المسيحية . لا تتوقعوا منه بياناً مفصلاً للمجادلات العقائدية الكبرى ؛ أنه يرى أن مثل تلك المواضيع تفوق مقدرة إدراك أكثر السامعين ، فهى من ثم بلا جدوى . بيد أنه يوقف على نتيجة تلك المجادلات ، كما يتضح من تحديدات الكنيسة أو من تعليمها العام . أما المشاكل العظمى ذات الصبغة الميتافيزيقية ، فهو يجهلها لعدم ميله الشخصى إلى النظريات المحضة . إنما الأمر الخطير معرفة التدبير الإلهى المختص بالخلاص والانضواء إليه . و بما أن كل ضلال فى شأن هذا التدبير الإلهى ينتج عنه حتماً ضلال فى السلوك العملى ، فى ميدان الأخلاق ، فلنتجنب الضلال ونعرف موقفنا الحقيقى ، ثم لنعش عيشة مسيحية ، على الأخص .

قلنا إن نصارى أنطاكية لم يكونوا كلهم مثاليين . . . لم يُسغ يوحنا لنفسه، بدون دواع معقولة، بعض التعنيفات، كالتى يختم بها ميمره الثانى والثمانين على القديس يوحنا ، أو التى يواصلها فى كل « المقالة على الندامة » . إنه يلوم النصارى الذين يستغنون عن الفضيلة المميزة للنصرانية ، وهى حبّ القريب . يلوم النصارى الأتقياء فى بعض الأحيان ، الذين يهملون حضور الحفلات الكنسية ،. فلا يأتون إليها فى سوى الأعياد الكبرى ، بل أقل من ذلك ، لأنهم يخرجون قبل ختام الطقوس . . . ويسلكون فيها سلوكهم فى الميدان العام . ينوح على شقاء الذين لا يقرأون قط الكتابَ المقدس ، لأن وقتهم ، على قولهم ، لا يتسع لذلك بسبب أشغالهم ، و « لأنهم ليسوا رهباناً » ، مع أن وقتهم لا يضيق البتة عن التريث فى الميادين والذهاب إلى أقل المسرحيات لياقةً أو إلى المضمار ، مهما كانت الأحوال الجوية . إنه يفضح السكّيرين ، المجدفين ، الفنجات ، الأغنياء الأشرار ، الخلاعة والتهتك ، بما يدهش من قوارص الكلام وبحيوية غير منقطعة . يحتج على الخرافات المضحكة ، على الخلاعة الجامحة فى أيام الأعراس ، على تظاهر بعض الأرامل الفتيات بالالتياع فى جنازات أزواجهن . لا نقص أصلاً فى تيقظه ؛ إذا بدا منه اللوم الدائم ، فإن من واجبه الحراسة ؛ إن لم يقم به ، استحق هو ذاته غضب الله ، وصار مسؤولاً عن موت نفس الموكولين إليه ، بل قاتلاً لنفسه الخاصة .

لاندفاعه سبب عميق ، وكثيراً ما يلفت نظرنا إليه : يوحنا يهوى إخوته ويريد تخليصهم . بكشف الرذائل وشناعتها يتوخى إنالة الاهتداء . إذا ذكّر مراراً نار الجحيم ، وهى نار جد حقيقية وليست مجازية البتة ، فإنما قصده إثارة الارتعاب ، لكنه ارتعاب يؤول إلى خلاص النفوس. يقصد على الأخص إثارة الحب لله . فإن شر جحيم هو عدم المحبة. والحياة الصالحة بدون حب الله والقريب لا تكون سوى كبرياء جديرة بالعقاب فى عين الله .

فلنغير سلوكنا ونعترف بذنوبنا . إذ يفوه يوحنا بهذا الكلام . يفعل كما كان يسوغ فى مكان وعلى حسب عادات مغايرة لبلادنا وعاداتنا . من يحثهم الخطيب على الإقرار بخطاياهم . يدعوهم إلى مجرد الاعتراف بذنوبهم . إلى عد ذواتهم خطأة أمام الله فى سر ضميرهم أو فى الاجتماع الكنسى ، بيد أن ذلك يحدث فى تلك الظروف بعمل يشبه عملنا حين نتلو « أنا أعترف » فى القداس . أو نرتل « ارحمنى . يا الله » فى أحوال أخرى ، أو نقبل الرماد فى بدء الصوم الكبير . الاعتراف والاستغفار وإصلاح السيرة ذلك ما ينتظره الله ليعيد إلى الخاطئ صفة البار . بيد أنه يجب حتماً لنيل هذا الغفران . أن نغفر نحن لغيرنا ؛ وإلى ذلك العمل الجوهرى ينبغى أن نضيف الصلاة . الصدقة . التيقظ والصوم . إن الله يسبغ نعمته على من يفعل ذلك . فلا يبقى عليه سوى تلبيتها .

النتيجة

أواه ! إن نتيجة جهود يوحنا لم تكد تظهر للعيان . المعاتبات ، التهديد بجهنم ، التوسلات المؤثرة ، كل ذلك كان كالضرب فى حديد بارد . من الأكيد أنه قد حدثت ارتدادات فردية ، لكن يوحنا كان يريد إصلاح كل المدينة . كان يود أن يكون « ذلك الرجل الوحيد ، رجل الإيمان المضطرم بالغيرة والمصلح للشعب أجمع » . الذى يتكلم عنه فى ميمره الأول على التماثيل . كان كامل الوقوف على تلون مواطنيه ، ومع ذلك كان ذلك العيب يخمد همته بعض الأحيان : « حين يرى أستاذ أن تلميذه لا يجنى أدنى فائدة مما يعانى فى سبيله ، يصعب تصور ألمه وأناته إذ يتأكد له أنه يضيع وقته ومشقاته . . . » كان يسأل ذاته أليس الأفضل ، على كل حال ، أن يسكت ويترك الخاطئين فى جهلهم ، لئلا يثقل ذنوبهم بإرشادات مكررة بدون انقطاع وبلا جدوى على الدوام .

لكنه كان لا يلبث أن يغلب تلك التجربة . فى نظر المتروى ذى الإيمان ، لا يمكن أصلاً أن يكون كلام الله عادم التأثير . الطبيب الخابط فى استعمال علاج ، يرجع فى الغد ويستعمل غيره . الحطاب يضرب مرة ، مرتين ، أربعاً ، خمساً ، بل عشر مرات ليُسقط سنديانه . إن لم تسقط الشجرة من أول ضربة . يوحنا أيضاً يعيد الكرّة ثلاث مرات ، مئة مرة ، بل أكثر . ولو لم يستفد من إلحاحه سوى واحد من سامعيه ، لما كان وقته مضاعاً .

محاربة الضلال

تثقيف الجماعة المسيحي ذو مظهرين: إعطاء المؤمنين الرأى المسيحى المحض فى شأن العالم ، الذى يوجد — أو ينبغى أن يوجد — السيرة المسيحية الحقيقية ، ومحاربةُ الأخطار التى تعرّض لها دعايات الضلال ذلك الرأى فى العالم .

لم يتحتّم قط على يوحنا أن يحارب الدهرية ، وذلك لسبب معقول . وهو أنه لم يلق البتة فى محيطه أناساً دهريين . كان لقومه موقف واحد تجاه وجود الله وخلود النفس والجزاء فى الآخرة . كل هذه كانت حقائق واضحة ، بحيث كان جميع الناس - اليهود والوثنيون والهراطقة . وبالإجمال كل البشر يسلّمون بها . كما تحقق خطيبنا بإيجاز فى أحد ميامره على لعازر .

مع عدم وجود دهريين ، كان هناك الوثنيون واليهود الآبون الإيمان بالمسيح ، وكان الهراطقة .

وأيم الحق ، منذ ٢٨ فبراير ٣٨٠ كانت النصرانية الأرثذكسية تتمتع بحماية شرائع الدولة ، وقد حُرِّمت الهرطقة والوثنية ، مع ذلك لم تزل الوثنية حية . أولاً ظل التعليم مدرسيًّا ، ومن ثم كامل التشرب بالفلسفة والميثولوجية الوثنيتين . كان يوحنا يرى أن الخطر المهدد للإيمان فى أثناء تلك الدروس

ليس وهمياً ، وأن من الواجب مقاومة تأثيره بمواصلة درس الكتاب المقدس .
أما عامة الشعب فكانت تجهل ذلك الخطر ، لكنها تعرف من الوثنية الممارسات الخرافية ، الطلاسم ، التنجيم ، العرافة ، وكلها خطايا مضادة لله ، وخدمة للشيطان الذى يوعز بها ، وطريق مؤدٍّ إلى الفساد ، لأن من يعمل بها يستسلم للقدَرية (fatalisme) التنجيمية أو لممارسات فيها من البلاهة ما يساوى عدم فائدتها ، بدلاً من سعيه للاهتداء .

وما هو أشد خطراً من ذلك أن الوثنيين يهاجمون الإيمان المسيحى بأسئلتهم الخافية الفخاخ ، والنصارى ، فى الغالب ، عاجزون عن إجابتهم. سيجد القارئ فى القسم الثانى من هذا الكتاب فقرة شهيرة من ميمر على القديس يوحنا فى ذلك الشأن . من كان متأهباً يستطيع الجواب ، وإلا فالسكوت أولى . على كل حال يجب منع خلاعة النصارى أو قلة مبادرة الموعوظين لأجل العماد إلى تلقن التعليم ، عن إثارة اعتراضات الوثنيين . أخيراً ، كلما سوغت الأمر قداسة السيرة والعلم الكافى ، يجب العمل الإيجابى ، بالإقناع دون القسر ، لهداية الوثنيين الحسن استعدادهم ؛ أما الباقون فيكون هذا السعى لخدمتهم إضاعة وقت وعدم فطنة .

لم تكن الوثنية الخطر الوحيد ؛ كان ينبغى الحذر من الدعاية اليهودية ، فإنها ليست بدون تأثير . كان بعض النصارى أو المستعدين للعماد يترددون هم أيضاً إلى كنائس اليهود ، إذ يزعمونها قد تقدست بالكتب المقدسة المحفوظة فيها ضمن الخزانة المقدسة . كانوا يشتركون فى أعمال عبادة

الناموس القديم ، مع كونه مُلغى منذ قدوم المسيح ، وعلى هذا المنوال يتحدون بقتلة المسيح . أما يوحنا فكان يتوسل إلى المؤمنين ، بل يأمرهم بالتدخل لمقاومة أولئك الضالين الأشقياء .

من البديهى أنه يعرف و يعلم الوظيفة التى قام بها الشعب المصطفى فى تدبير الله لخلاص البشر . ومن ثم لا يطيق أصلاً الاستخفاف بديانة العهد القديم ، الذى كان يرتكبه بعض الهراطقة . بيد أن الناموس كان يهدى إلى المسيح ، والدين اليهودى قد زال بمجيئه . ومنذئذ قد فاقه دين آخر . كل خطإ اليهود وشقائهم قائم بكونهم أبوا التسليم بتلك الحقيقة الأكيدة . واحتقروا الناموس بعد تسليمهم بقدوم المسيح وبألوهيته . جريمتهم هى أنهم رذلوا المسيح وقتلوه . ولم يفعلوا بذلك سوى إطفاح الكيل الذى ملأه جدودهم . وقد سهل كل السهولة على يوحنا أن يُثبت ذلك بعنف أقوال الأنبياء وبتاريخ عاقبة القدس . وهى عقاب عادل لعدم أمانة دائم . يجد بدون عناء . فى العهد القديم . جدولاً طويلاً من اللعنات والاستنطاقات الشديدة اللهجة . بل يضيف إليها مما ابتكره . ويجعل صوته صدى لأنواع الثرثرة المتداولة فى العالم القديم . مع أننا فى أيامنا نؤثر أن نراه جاهلاً إياها . إن انفجارات العواطف من أمثال المذكورة كانت مألوفة فى ذلك الزمان ، فيجب أن نراعى الأحوال التاريخية عند إبداء رأينا فيها . على كل حال نفضّل نحن إقلال الخشونة .

اليهود والوثنيون قوم من الخارج ؛ أما الهرطقة فكانت راسخة فى داخل النصرانية . يوحنا ، عند شرحه مثل الزؤان والبذر الجيّد ، يفهم من كلمة زؤان الهرطقة عمل الشيطان . يقول إن يسوع قد تكلم عن الزؤان ، لأن بذره شبيه جداً ببذر الحنطة . بما أن الشيطان عاجز عن استئصال الحنطة ، فهو يمزج بها الزؤان ليزيل خصب الحقل . هكذا يفعل الهراطقة عن صلف شخصى محض ، ولا بد من الانتظار حيناً قبل الانتباه لأضرارهم ، كما حدث فى شأن الزؤان . لكن أبا العائلة لا يريد أن يُقلع الزؤان قبل الحصاد ، والله لا يريد أن يُقتل الهراطقة ؛ إن ذلك عمل غيرة أسىء فهمها . الأمر المستعجل ليس عقاب الهرطوقى ولا إثارة منازعات لاهوتية لا سبيل إلى تهدئتها ، بل صيانة الحنطة ، الكنيسة الأمينة . بإعدام الهراطقة وقتلهم نزيل إمكان الاهتداء إزالة كلية . فلنحرّم اجتماعاتهم ولنمنع دعايتهم ، ذلك معقول ، بشرط ألا نتجاوز حدوده .

يوحنا يصرح فى خُطبه المضادة للأريوسية المطلقة ، بأنه لا يحاول أن يجندل الضالين ، بل أن يُقيل عثرتهم . يوضح فكره بقوله إن الجدال يجب أن يكون بدون شراسة ولا غضب ، بل بسكينة واعتدال ، وإن علائق الصداقة والألفة بين الأرثذكس والهراطقة ، ينبغى قطعها بلا تردد إذا كانت مضرة بالإيمان القويم ؛ أما إذا نتج عنها اهتداء الغواة ، فيجب أن تواصَل بدون ذبذبة . تلك مواقف كان يوحنا يهواها ، وهى مجلبة التوقير لنفسه المتساهلة . بيد أنها لا تحول دون استعماله ، فى شأن المذاهب

الهرطوقية الشتى ، نعوتاً ذات قرص غير زهيد . . . لكن ذلك كان عادة جارية قد خففت جداً في الواقع معنى الكلمات المستعملة في اندفاع الخطاب .

أول طريقة للاحتراس من الهرطقة هي إجادة معرفة التعليم الصحيح ، فتدرك فوراً نُقط الشقاق والأضاليل . الطريقة الثانية — وهي قريبة المنال لكل الناس — هي إصمام الآذان عن أقوال الهراطقة المجاهرين بعقائدهم ، والتقيد بالتعليم الصادر من الإكليرس الأرثذكسي . أما المجادلات فلا بد من العلم الكافي للاشتراك فيها ، وهي بلا جدوى مع ذوي النية الفاسدة .

من المستحيل أن نُفسح هنا المجال لنرى بالتفصيل كيف كان يوحنا يجابه مواقف عدة هرطقات كانت تنشر الدمار في مدينة أنطاكية . يقاوم الهرطقة ببيان الإيمان التقليدي الذي أساسه الكتاب المقدس ، على حسب شرح الكنيسة . يحدث أحياناً ليوحنا أن يتجاوز قليلاً ، في بعض النقط ، عن رد فعل ، حدود الصواب ، في موقفه التعليمي ، الذي يدّعي أنه موقف الكنيسة . من أمثال ذلك ما جرى له في نظريته على عدم إمكاننا فهم الله ، الذي أكده ضد العقلية المفرطة للأريوسيين المطلَقين ؛ وكذلك أيضاً نسبته حصة أكبر مما هي في الواقع ، إلى قدرة الإرادة البشرية ووظيفتها ، مع تصغير مفعول النعمة ، في مقاومته حتمية (déterminisme) المانويين والغنوسيين أو قدَريتهم .

الفصل السادس

أسقف يعرف ما يريده

سيامة غريبة

فى القسطنطينية يوم ٢٦ سبتمبر ٣٩٧ مات الأسقف الشيخ نكتاريوس بعد ستة عشر عاماً من أسقفية عادمة الإشعاع ، قضاها فى جمود رزين لبق ، جمود سَرِىّ عظيم من علية موظفى البلاط سابقاً ، شديد الرغبة فى تجنب جميع المشاكل .

منذ مجمع سنة ٣٨١ كان كرسى القسطنطينية قد صار ، على الأقل فى الواقع ، الثانى من كراسى النصرانية ، مع احتدام غضب الإسكندريين الآبين التسليم بذلك . ثاوفيلوس أسقف الإسكندرية لم يحرك ساكناً لمقاومة نكتاريوس الذى لم يزعجه أدنى إزعاج . بيد أنه عارف أن أسقفاً للقسطنطينية ذا طبع أقل هلعاً غير معقول ، يحرص على المطالبة بحقوق كرسيه ، مما يصعب التسليم به . فكان ثاوفيلوس قد عقد نيته على السعى لينتخب بصفة خلف لنكتاريوس أسقفاً هادئ السليقة ، وإن لم يكن موالياً له . من ثم أسرع إلى العاصمة حتى يقدّم مرشحه ويكيد مكايده فى البلاط .

والحال أن أوتروبيوس ، حاجب الإمبراطور أركاديوس الذى كان قد خلف أباه ثاودوسيوس ، أراد مقاومة ثاوفيلوس ، فطلب أن يُختار يوحنا ، ذلك الكاهن الأنطاكى المشهور بقداسة حياته وفصاحته وأرثذكسيته . فما كان شرط النجاح سوى العمل السريع الخفى ، لكى يتجنب أوتروبيوس فى الآن ذاته محاولات ثاوفيلوس المضادة له ورفض يوحنا .

فى أواخر نوفمبر ٣٩٧ استقدم كونت الشرق المقيم فى أنطاكية يوحنا على وجه سرى ، ولم يعرف سبب ذلك الكونت ولا الكاهن . فذهب يوحنا إلى حيث دُعى ، فخُطف خطفاً بمعنى الكلمة الحرفى . وذُهب به إلى القسطنطينية بدون توقف بين المراحل . فلم يتمكن من الرجوع إلى داره لأخذ أمتعته . حين وصل إلى القسطنطينية كان بعض الأساقفة مجتمعين لانتخاب الخلف وسيامته . فأطلِعوا على قدوم يوحنا وإرادة أركاديوس . فخضع جميعهم لها وانتُخب يوحنا .

ثار ثائر ثاوفيلوس إذ رأى حبوط دسيسته . ولم يكن أقل حنقاً لاضطراره ، بصفة ثالث أسقف فى النصرانية ، هو العادّ نفسه الثانى ، إلى أن يهمّ بسيامة ذلك « الحديث النعمة » . من ثم رفض ليدافع ، على قوله ، عن حقوق الإسكندرية وامتيازاتها . بيد أنه كان قد أذنب مراراً بسوء استعمال السلطة ، وقد رُفعت إلى الأساقفة شكاوى عليه . كان أوتروبيوس يعرف ذلك . فطلب أن تسلّم له إضبارة الشكاوى . وساوم

ثاوفيلوس على هذا المنوال : إما أن يسيم يوحنا ، وإما تُرفع الشكوات إلى الإمبراطور .

فسيم يوحنا بوضع يدى ثاوفيلوس ، ثم أجلس على العرش الأسقفى فى ٢٦ فبراير ٣٩٨ ، وبعث فوراً إلى سيريسيوس بابا رومة برسالة تشهد على سيامته . أما ثاوفيلوس فقد سافر عائداً إلى الإسكندرية ، وهو عازم كل العزم على الانتقام من كل تلك الإهانات .

الأسقف الجديد

منذئذ زالت عن يوحنا عيشة الدرس والوعظ البعيدة عن مشاق الإدارة الأبروشية . فيظل دائم الأسف على ذلك . فى الحقيقة ما زال من زمن بعيد يعد ذاته جديراً بالأسقفية . فإنه عادم البلاهة . غير أنه لم يتوقع أصلاً الأسقفية فى العاصمة ؛ كان يظن مثل كل أهالى أنطاكية ، أنه يخلف فلافيانوس .

يسوغ أن نسأل ذاتنا هل كان اختيار أوتروبيوس وأركاديوس جد حسن . لم يكن فى يوحنا ذرة من نقائص المتساهل فى قبول المخاطرات أو المقرَّب إلى العاهل أو المتملق ؛ فكان يجب على ذوى السلطة العليا أن يعرفوا ذلك ويتروَّوا فيه . فإن يوحنا ، وهو أسقف ، سيقوم بواجبه ،

بكل واجبه ، بواجبه فقط . إذ أنه يعرف سلطته الروحية الأسقفية وصفة سفير الله التي له ، سيعظ على الحقيقة ، والحقيقة جارحة . لن يقبل أبداً أن تهزأ السلطة الزمنية بحقوق الكهنوت ، لن يقبل أبداً ترك حقوق كرسيه عرضة للاحتقار . في الآن ذاته يريد أن يكون أبا جميع النصارى ؛ فلماذا تحتم عليه أن يبدى قدرته أكثر من إظهاره حنوه الأبوى ؟

البلاط

كان القصر الإمبراطورى منتصباً بإزاء الكاتدرائية ، وكان يملك فيه . بصفة إمبراطور الشرق أركاديوس نجل ثاودوسيوس ، ابن عشرين عاماً . كان شابًّا يُرثى له ، زهيد المواهب ، مخدوعاً بحيل زوجته أفدوكسية التي قارن فيها الذكاء الجمال ، فكانت تسخرهما كليهما للتسلط على بعلها ولإدارة الأشغال ، وكانت سرعة غضبها المفرطة تجرها أحياناً إلى غوايات مستهجنة . بجانب الإمبراطور وزوجته ، كان أوترو بيوس رئيس الحجاب ، الحديث النعمة ، الجشع ، الجاهل أصول اللياقة ، لا يقيم أدنى وزن لأركاديوس ، ويسيّر أفدوكسية على هواه ، بما أنه دبّر زواجها بأركاديوس.

بهؤلاء الأشخاص العظام الثلاثة كان يحيط جم غفير من ذوى المكانة

العليا ، من موظفين رؤساء ومرؤوسين ، من مقرَّبين ، من أعضاء صفوة المجتمع ، مع عدة أساقفة مترددين إلى البلاط وغافلين عن أبروشياتهم . جميع أولئك القوم الممتازين كانوا يعيشون فى بذخ يثير بعض الحنق ، وأخلاقهم غير زهيدة الارتخاء ، وهم يتنافسون فى كيد المكايد .

حالة الأبروشية

كان القصر الأسقفى مباشَر الاتصال بالكاتدرائية ، فابتدأ الإصلاح فيه . كان نكتاريوس قد بناه بعد حريق ، على وجه فاخر بإفراط فى نظر يوحنا . فبادر هذا إلى بيع قِطع المرمر الباقية بدون استعمالها ، ليوزع ثمنها على الفقراء . ثم فاوض وكيل صندوق الدار الأسقفية ، فألغى النفقات الباطلة والاستقبالات الكبرى . وجلوس أى شخص كان على مائدته ، وقاوم التبذير . منذئذ صار يأكل وحده كل أكلة بتقشف الناسك ، ما لم يجب عليه استقبال زملاء مارين به .

كانت مبالغ المال الموفَّرة على ذلك المنوال مختصة بصندوق المستشفى الموجود وقتئذ ، وربما توقف أيضاً على الذى قصد يوحنا تشييده .

بعد ما صار يوحنا قدوة الفضيلة على الوجه المذكور ، أقدم على إصلاح إكليرسيه الذى كان قد أرخى اللجام ببعض الإفراط لارتخاء

أخلاقه . فعزل كاهنين وشماسين إنجيليين قد افتضح تشكيكهم ، وبذل الجهد لإزالة العهارة والبخل وعدم الاعتدال فى الأكل والشرب المتفشية انتشاراً مفرطاً فى عدد فاحش من مؤازريه . ثم ذكّرت رسالة راعوية له أن مساكنة كاهن لعذراء مكرسة أمر فيه خطر . إن لم يكن حراماً . وهو مشكك على كل حال ، وأن تلك العادة الجديرة بالاستقباح . بل المستقبحة ، يجب أن تزول . فى وعظه فضح البخل والجشع فى الكهنة وتشبههم برفاهية الطبقة الوسطى . ودعاهم إلى الفطنة والقناعة فى الطعام والشراب . إذا سنحت الفرصة لقبولهم دعوة عائلات غنية إلى تناول الغداء عندها .

أما الأرامل والواقفات نفوسهن على خدمة الكنائس ومن هن أعضاء جمعية الأرامل ، لا غير ، فقد أمرهن بأن يعشن وفقاً لحالتهن أو يتزوجن زواجاً جديداً . البتولات المكرسات قد وفاهن حقهن برسالة راعوية على مساكنة الكهنة المـُريبة .

الرهبان الكسالى أو الدائبون على الخروج من أديارهم للاستعطاء . قد سمعوه يذكّرهم أنه ينبغى لهم أن يعيشوا فى الاختلاء عيشة تأملية . أو . إذا فضلوا العمل . أن يجعلوا ذواتهم فى خدمة الأسقف بانتظامهم فى سلك الإكليرس .

أما عامة المؤمنين فكانوا لا يكادون يفوقون نصارى أنطاكية بحرارة التقوى وطهارة الأخلاق . فيوحنا يـُبرق ويـُرعد فى مقاومة المسرحيات وسباقات

الخيل . ويهدد بالحرم المغالين فى الهيام بتلك الملاهى الفاسدة . يستقبح بأعلى صوته بذخ الأغنياء الوقح وصلابة قلوبهم ونفقاتهم العادمة الفطنة ، بينما المساكين — وهم المسيح نفسه ! — يموتون من الجوع والبرد . كلامه لاذع على الدوام بقدر ما كان فى أنطاكية . يوصى الجميع بالصدقة ، ويتوق إلى أن يجعلوا كل تلك الأموال العادمة الفائدة أو المُساء استعمالها ، تحت تصرف جميع النصارى المشترك . على وجه الإنصاف . وهو يستهجن التفنج البالغ أقصى حدود الإفراط والملتهم ثروات كاملة . . .

لتعجيل اهتداء شعبه قد نظّم الطقوس . وأمر بالعودة إلى ترتيل فروض الكهنة الليلية المهملة منذ حين . وأنشأ التطوافات بالمشاعل لمقاومة التى يقيمها الأريوسيون .

أنواع رد الفعل

كان يمكن يوحنا . ليُحسن إنجاز عمله الإصلاحى ، أن يتكل أولاً على بعض كهنته ، ولا سيما رئيس الشمامسة سيرابيون ، على فريق من المكرسات لخدمة الكنائس ورئيستهن أوليمبياس ، على بعض علية الموظفين وعلى الشعب الذى كان معجباً به ومبجلاً إياه إلى حد التصفيق له فى داخل الكنيسة . . . حين تهب العاصفة ، سوف يجاهر الشعب بعواطفه

على وجه جد عنيف ، ويبق أميناً ليوحنا .

ولكن من الواضح أن كثيراً من المقرَّبين ، أفدوكسية وأوتروبيوس ، الكهنة المزعَجين ،فى طمأنينتهم والرهبان المستائين ، الأرامل المعادات إلى الصراط المستقيم ، الأغنياء والمتفنجات الموضوعين على المنصّة ، ما كانوا ليرضوا بحفظ أسقف كهذا . ولنُضف إلى ذلك دسائس الأساقفة المترددين إلى البلاط ، وقد طمحت أبصارهم إلى عرش العاصمة الأسقفى ، ومكايد ثاوفيلوس المراقب لكل الحوادث من الإسكندرية والمنتظر الساعة الموافقة لأخذ ثأره .

بعض الأشغال الخطيرة

مع اعتزام يوحنا عدم الاهتمام بسوى شؤون أبرشيته . قد ألجأته مكانته إلى أخذ حصته من بعض الأمور الخطيرة التى تحتّم عليه أن يسوّيها أو يتدخل فيها .

أول ما حدث منها مشكلة أوتروبيوس . سنة ٣٩٩ . بعد مكيدة عسكرية ، عُزل أوتروبيوس ؛ وإذ خشى أوخم العواقب ، هرب إلى الكاتدرائية ، مستنداً إلى حق الالتجاء ، مع أنه كان قد ألغاه ، وهو قابض زمام الحكم ، مع أشد احتجاجات يوحنا ؛ فلحقه الجمع فيها .

وهو عطشان إلى الانتقام . أما الجنود فحاصروا الكاتدرائية بدون التجاسر على دخولها ، وطلبوا بأعلى الصريخ أن يسلَّم لهم الهارب . دخل بعض ضباط البلاط المكان المقدس للقبض على التاعس ، فتدخل يوحنا بسلطته وطرد الضباط ، ثم ذهب إلى القصر لتعنيف أركاديوس ، وبقى أترو بيوس ملتجئاً فى الكاتدرائية ، وظل الجنود فى مراكزهم طول الليل . فى الغد كان أوترو بيوس لا يزال هناك ، وقد ملأ الجمهور الكنيسة ليُشبع عيونه بمنظر سقوط الوزير ، لكنه لم يتجرأ على إيذائه بأدنى عمل . كان مستحيلا أن يطول مثل ذلك الحال . وفضلاً عن ذلك ، لم يسع يوحنا أن يسلّم بانتصار البطش أو البغض . فتكلم على موضوع « باطلة الأباطيل » ، وألقى خطاباً رائعاً ختمه بحث مؤثر على الشفقة .

تضاربت الآراء فى خطابه . خصوم يوحنا رموه بكونه قد انتهز الفرصة للفت الأنظار وتصفية حسابه مع أوتروبيوس فى شأن حق الالتجاء . بيد أن هؤلاء المشتكين ذواتهم هم الذين يتهمون يوحنا بكونه قد خان أوترو بيوس ، بعد خروجه من الكاتدرائية بدون أن يُقبض عليه ..

قد تحتم أيضًا على يوحنا أن يهتم ، إجابةً لطلب أركاديوس ، بالتدخل فى تمرد قائد وجنوده ، لحل تلك المعضلة ، وأن يقاوم مطالبات بكنائس ، قدمها الأريوسيون بمعاضدة ذلك القائد نفسه .

فى ربيع سنة ٤٠٠ نشأ نزاع بين أوسابيوس من فالنتينو بوليس ومترو بوليته أنطونينوس الأفسسى ، فرأى يوحنا ذاته مضطرًا لإصدار حكمه فى ذلك

النزاع . فى يناير ٤٠١ سافر إلى أفسس وعقد فيها سينودساً وسوّى الأمر ، ثم عاد إلى القسطنطينية . من الواضح أنه قد وُبخ على التدخل فيما وراء حدود سلطته . فى الواقع لم يكن أساس تلك الشكوى سوى فساد نية مقاوميه .

كان قد وكل . طول مدة غيابه . إدارة الأبروشية إلى أرشيدياقونه . والاهتمام بالوعظ إلى سيفريانوس أسقف جابالة ، المقيم فى البلاط وصاحب الحظوة الكبرى عند الإمبراطور وزوجته . فاغتنم سيفريانوس تلك الفرصة لفصل الشعب عن أسقفه . لم يلبث الإرشيدياقون سيرابيون أن فهم هذه المكيدة . فأوقف يوحنا عليها . ولم يخش أن يطلع سيفريانوس إطلاعاً واضحاً على رأيه فيها . فحدثت بينهما منازعات غير زهيدة العنف. يوحنا . فور عودته ، تناول من سيفريانوس شكوى على الأرشيدياقون مرفوعة بالصيغة الشرعية . فانتظر حيناً قبل النظر فيها . واكتفى بإلقاء موعظة لمّح فيها أمام المؤمنين تلميحاً جلياً إلى عدم جهله شيئاً من موقف سيفريانوس فى أثناء غيابه .

بقيت تسوية الخلاف الناشب بين سيفريانوس وسيرابيون . وقد اجتهد يوحنا لإنجازها . فصرّح ببرارة سيرابيون . إذ ذاك استشاط سيفريانوس غضباً وسلك سلوكاً مستهجناً أثار حنق يوحنا . فقطع اتحاده به . وأبلغه أنه يأمره بالرجوع إلى أبروشيته . فانطلق سيفريانوس . بيد أن الإمبراطورة ما لبثت أن أعادته . فتشكك القوم من هذه المقاومة الإمبراطورية للأسقف . فصبر يوحنا على ذلك لاتقاء شر أعظم .

واستقبل سيفريانوس . وألقى خطاباً على السلام والاتحاد لتهدئة ثوران المؤمنين . فى الغد أجابه سيفريانوس بخطاب على الموضوع ذاته ، غير أنه بلهجة رسمية تنم عن إعجاب غير يسير بنفسه. وقد نفر منها السامعون . بعد رجوعه إلى القصر . واصل فيه عمل التدبير ، لكنه لم يوفق البتة إلى أن يصير خلف يوحنا . وهو موضوع توقه . كان له، بصفة مؤازرين فى ذلك السعى القائم بالتشنيع والدسائس . الكهنة الذين عزلهم يوحنا وأسقفان ورئيس دير فى القسطنطينية .

بقصد إهلاك يوحنا بحث المتآمرون عن ماضيه . فذهبت أتعابهم سدى . فلم يبق لهم غير انتظار فرصة موافقة . إذا عجزوا عن إيجادها . وقد سنحت لهم فى مشكلة « الإخوة الطوال » . وهم أربعة رهبان سُمّوا كذلك لطول قامتهم . بعد منازعات محزنة مع ثاوفيلوس الإسكندرى . كان أولئك الرهبان المصريون الأربعة وكثير من إخوانهم قد اضطُروا إلى مغادرة مصر والسفر إلى فلسطين . ثاوفيلوس لم تكن له البتة الحصة المشرّفة فى تلك القضية . فقلق وكتب لأساقفة فلسطين مدعياً أنه ضحية ، ومتهماً الرهبان بالهرطقة و بمحاولة قتله . وقد حرك إيرونيموس إلى المدافعة عنه وكذلك أبيفانيوس السالاميني ابن تسعين عاماً . الذى سبق لنا الكلام عن قلة حصافته . أجاب الفلسطينيون بدون تحمس . فاستاء ثاوفيلوس وعرّفهم أنه قد ضرب الرهبان بالحرم . فيجب أن يعاملوا بصفة محرومين .

الرهبان الذين ظل ثاوفيلوس يطاردهم بغيظ مفرط وظلم واضح ،

ذهبوا إلى القسنطينية لطلب الإنصاف . وصلوا إليها فى أوائل عام ٤٠٢ ، فذهبوا لمواجهة يوحنا وأوضحوا له ضيقاتهم طالبين منه التدخل . فأضافهم لكنه أراد إجراء تحقيق قبل كل تدخل رسمى ، بل أذن لهم فى حضور الحفلات الكنسية دون التناول. فأوحى التحقيق أن من الفطنة عدم المضادة بلا مراعاة لثاوفيلوس المفرط بسرعة غضبه . كتب له يوحنا رسالة لطيفة ليستأذنه فى قبول تناول الرهبان . وليعرف ما يجب عليه فعله إجابة للطلب الموجّه إليه . فأجابه ثاوفيلوس بقحة ، مستشهداً بالقوانين المحددة لسلطة الأساقفة . عندئذ غض يوحنا نظره عن القضية ، ورفع الرهبان شكواهم إلى البلاط الإمبراطورى ، إذ لم يروا مخرجاً آخر من مأزقهم . فدُعى ثاوفيلوس إلى المثول فى محكمة أساقفة يتصدرهم يوحنا . وصارت القضية على جانب عظيم من الخطورة .

حينئذ فار فائر ثاوفيلوس ، لم يستطع التمرد على الإمبراطور . لكنه كان قادراً على مضادة التدبير المذكور . وقد فعل ذلك بإرساله أبيفانيوس إلى القسطنطينية لتحقيق سرعة انتشار الهرطقة التى بذر الرهبان بذورها ، وقد شاطرهم هذا العمل ، على زعمه ، يوحنا مؤيدهم . منذ بدء سنة ٤٠٣ وصل إلى القسطنطينية الشيخ القليل الحكمة . فأبى مواجهة يوحنا ، إذ عده هرطوقيّاً ، وسلك بخلاف أصرح جميع الأوامر القانونية الكنسية . فاقتحم على جمع كل الأساقفة الحاضرين فى المدينة ، ما عدا يوحنا ، ليطلب منهم توقيع أحكام ثاوفيلوس على المجرمين ، فلم ينجح نجاحاً يُذكر .

يوحنا من جهته كان أدرى بما يجب أن يكون رأيه فى أبيفانيوس ، فشاهد بشفقة كل هذا الهياج . مع ذلك دعا أبيفانيوس إلى القصر الأسقفى ، والتمس منه أن يشاركه فى إقامة القداس . فرذل أبيفانيوس تلك الدعوة ما بقى الإخوة الطوال فى القسطنطينية ، وما زال يوحنا يستقبلهم . والحال أن يوحنا قد أبى طردهم . فعزم أبيفانيوس على التجريس به ليقسره على الخضوع . حين اطلع يوحنا على مقصده ، نبهه للأخطار التى يقتحمها من قبل شدة غضب الشعب ، إذا عمل بما توخاه . فكُبح جماح أبيفانيوس وركب السفينة ثانيةً بوجهة قبرس ، بعد حبوط كامل ، ومات إبان السفر . ومن ثم كان نصيب ثاوفيلوس الإخفاق المكرر .

فاستاء أعضاء حزبه كل الاستياء وأخذوا يكيدون المكايد لدى أفدوكسية . أوهموها أن يوحنا قد طعن فيها جهاراً فى إحدى خُطبه على البذخ . جرح ذلك شعورها . فقررت أن المجمع المقصود عقده برئاسة يوحنا ، لمحاكمة ثاوفيلوس ، ينعقد فى الواقع ، لكن برئاسة ثاوفيلوس لمحاكمة يوحنا وعزله . أوقف فوراً أسقف الإسكندرية على تلك البشارة ، فركب سفينته مع ثمانية وعشرين أسقفاً موالين له ، مع أنه قد أمر بالحضور وحده . وكان يفتخر علانيةً بأن غاية سفره هى عزل يوحنا .

الفصل السابع

المجد لله فى كل شىء

حين وصل ثاوفيلوس إلى القسطنطينية أبى كل مواجهة ليوحنا ، مع أن هذا كان يقدّم إليه الضيافة فى الدار الأسقفية . فنزل خارج المدينة فى قصر بلاسيدية الإمبراطورى . وبقى فيه ثلاثة أسابيع مشغولاً بإعداد « الدعوى » وبشراء الضمائر ، ثم ذهب إلى جوار خلقيدونية فى أوائل سبتمبر ٤٠٣ . ليعقد فيها مجمعه فى المكان المسمى « السنديانة » . على ذلك الوجه كان هو وأنصاره فى مأمن من غضب أهالى القسطنطينية المتعلقين بأسقفهم .

لصوصية مجمع السنديانة

حول ثاوفيلوس وسيفريانوس كان خمسة وثلاثون أسقفاً يؤلفون « المجمع » محاطين برهط مضطرب من كاتمى الأسرار . بيان الشكاوى المحرّر ضد يوحنا كان يسرد تسعاً وعشرين شكوى . وهو من أعجب غرائب الحماقة

المبغضة ، بحيث لا يسع ذا نية سليمة أن يقيم له وزناً .

كان أركاديوس يدّعى أنه يريد أن يذهب يوحنا إلى المجمع ليحاكم فيه ثاوفيلوس ، وذلك مزاح مشؤوم . فأبى يوحنا الدخول فى تلك المكيدة ، وتحصن بالحقوق الكنسية، مستشهداً بالقوانين ذاتها التى ذكرها ثاوفيلوس فى رسالة لمقاومته . من جهة أخرى كان يعلم أن أفدوكسية وزمرة المتآمرين بأمرها قد أعدوا العُدة لإسقاطه .

تصدر ثاوفيلوس السينودس ، الأمر بالمثول فيه بلغ يوحنا . وهو فى قصره الأسقفى محاطاً بأربعين أسقفاً مستقبحين ذلك الحادث المشكك . الأربعون حبراً بعثوا إلى ثاوفيلوس برسالة مشتركة شديدة العنف . يعدّونه فيها جباناً ، قايين ، عاصياً لقوانين الكنيسة . أما يوحنا ، فبدون مخالفة الأمر بحضوره ، عرّف أنه لن يحضر ما لم يُزل من المحكمة بعض أعضاء يأبى محاكمتهم له .

من الطبيعى أن ثاوفيلوس قد ضرب بتلك البلاغات عرض الحائط . عندئذ أمر أركاديوس يوحنا بالمثول ، فأبى يوحنا ، فأمر بذلك ثلاث مرات ، وهو ثابت على رفضه . إذ ذاك « حكم » ثاوفيلوس على يوحنا « حكماً غيابيّاً » وقرر عزله . ثم أطلع الإمبراطور على « الحكم » ... ولكن مُصدريه لم يتجاسروا على تعريف رومة إياه . مع أنهم يعلمون كل العلم ، منذ المشاكل الأريوسية ، أنه لا يسوغ بدون سلطتها الحكم الجازم فى الدعاوى المرفوعة على أساقفة . الإمبراطور قد استحسن أن يضيف

إلى العزل أمراً بالنفى . فوقف عليه الشعب فوراً وركض إلى الدار الأسقفية ، وجاهر مجاهرة ولاء ليوحنا ، وحال دون تقرب الشرطة الإمبراطورية .

النفى بسرعة البرق

فى الغد أتى يوحنا إلى الكاتدرائية ووعظ فيها مؤكداً أنه لا يخشى شيئاً . لأن الله معه ومع الكنيسة . هو واثق بعدله وعارف أن الشهداء ، مع حبوطهم الظاهر ، هم المنتصرون الحقيقيون . فى اليوم الثالث كان يوحنا لا يزال هناك . وشعبه يحرسه ويواصل المقاومة لمجىء الشرطة الإمبراطورية . عندئذ صرح يوحنا بأن مجاهرة الاحتجاج قد دامت مدة كافية . ثم انطلق .

إذ ذاك أسرع المتآمرون إلى القسطنطينية . فأوسعهم الشعب تعييراً ، وهو يعيّر فى الآن ذاته جلالة الإمبراطور وزوجته . ثم احتشد أمام البلاط فريق من المجاهرين الآخذ منهم الهياج كل مأخذ . فألغى الإمبراطور قرار النفى ودعا يوحنا إلى الرجوع ، فأبى هذا العودة إلى القسطنطينية . كُررت الدعوة وتجدد الرفض. بعد ثالث دعوة رضى يوحنا أخيراً بالإياب ، فدخل الميناء دخول مظفّر واحتشد الناس لمواكبته . مع ذلك قد أبى يوحنا العودة إلى مدينته قبل أن يحكم مجمع فى قضيته . أما الجمع فأصمّ آذانه

وأقام مجاهرة لكي يعود المنفى إلى قصره الأسقفي ، كأنه لم يحدث شيء مما حدث . فاعتزم يوحنا ذلك . وكان رجوعه مصحوباً بأسمى دلائل الانتصار . عند وصوله إلى كاتدرائيته وعظ فيها وقال « تبارك الله ! » . وشكر للشعب أمانته .

لم يبق منذئذ لثاوفيلوس وسيفريانوس وغيرهما سوى الفرار بأقرب وقت . بدون أن يراهم أحد . اتقاءً لشر العواقب . لأن حديث القوم كان على إلقائهم في البحر . حين رجع ثاوفيلوس إلى الإسكندرية . استُقبل فيها بمجاهرات التهكم وبصفير الصفّارات . . . يوحنا من جهته كان يلحّ حتى يُعقد مجمع ينقض أحكام لصوصية السنديانة . فلم يستطع الحصول على ذلك . بيد أن ستين أسقفاً محتشدين في القسطنطينية أكدوا أنه يسوغ له استعادة وظائفه الأسقفية . ففعل ما أشاروا به .

العاصفة على أهبة الهبوب

بعد زوال الخطر عاد سيفريانوس إلى البلاط . حيث كاد المكايد ليوحنا أكثر مما فعل في الماضي . وقد حدث حادث موافق لغايته . كان قد نُصب في المدينة تمثال أفدوكسية . فأقيمت مجاهرات أفراح شعبية للاحتفال بذلك الحادث . وكانت ذات صبغة وثنية مفرطة . فاحتج عليها

يوحنا فى موعظة . وسهـُل إقناع أفدوكسية أنه قد توخى تعبيرها . وقف يوحنا على ذلك . فاستحسن الثبات على موقفه . عندئذ اعتزمت أفدوكسية أن تتخلص منه فى أثناء جلسات المجمع المنوى عقده بدعوة أركاديوس .

ثاوفيلوس . بعد ما فهم . على وجه نهائى . أن الأسفار إلى القسطنطينية لا تـُجديه نفعاً . أبى تصدر ذلك المجمع . لكنه قد دل على الواسطة الناجعة لإهلاك يوحنا . كان مخالفاً لقوانين الكنيسة أن أسقفاً معزولاً يستعيد كرسيه من تلقاء ذاته ويرجع إلى وظائفه . كان ثاوفيلوس يذكر القوانين المشار إليها . بل يختلقها عند اللزوم لمصلحة القضية . ويعزوها إلى مجامع ليست كلها أرثذكسية ... فكانت مكيدة مُحكمة ... فى أواخر ٤٠٣ التأم المجمع . مع اعتراضات كثير من الأساقفة ذوى ضمير مستقيم ، اكتفى الأحبار بقولهم إن « مجمع السنديانة » حافظ كل قيمته . فيجب التعجيل فى إنفاذ قراراته . من سوء حظهم لم يكن ذلك ممكناً لأنهم يخشون الشعب .

الإمبراطور لم يحضر . خلافاً للعادة . حفلات عيد الميلاد الكنسية فى الكاتدرائية . كان الفصح قريباً . ويوحنا لا يزال فى مقره قائماً بوظائفه . وجد خصومه ذلك مما لا يسلـّم به . فنالوا من الإمبراطور أن يمنعه عن تتميمها . كانوا يريدون أيضًا أن ينفيه . لكن أركاديوس كان أدرى بما قد يقع من الاضطرابات . فاجتزأ بحبس يوحنا فى داره الأسقفية . يوحنا . من جهته . قد أعلمه أنه لن يخضع إلا للقوة القاهرة ، لأنه موقن بصحة حقه .

فى أواخر الصوم الكبير أمِر يوحنا بالرحيل فأبى ، ولم تأت بفائدة وساطة أربعين أسقفاً من خُلانه لدى الإمبراطور وزوجته . كان يوحنا ، وفقاً لواجبه ، على أهبة إقامة حفلات بيرمون الفصح والعماد ؛ فى ١٦ أبريل ٤٠٤ ، وإذا الجنود قد دخلوا المكان المقدس عنوةً ، وعذبوا المؤمنين والمستعدين للعماد ، ودنسوا الكنيسة فتشتت المؤمنون وذهبوا مع الإكليرس ، دون يوحنا ، إلى كنيسة الرسُل القديسين ، ليواصلوا الحفلة فيها . ففاجأهم الجنود وطردوهم طرداً مصحوباً بسفك الدماء ، وقد ثار ثائر اليهود والوثنيين ، ولم يكتموا استقباحهم لتلك الأساليب ، وبقى يوحنا محبوساً فى قصره الأسقفى .

فى صباح الغد ، يوم الفصح ، أبى المؤمنون حضور الحفلات التى تصدرها فى المدينة أعداء يوحنا ، فذهبوا واجتمعوا فى شبه ملعب غير مسقوف ، على مسافة خمسة أميال من المدينة . اجتاز الإمبراطور هناك وسأل ماذا يعملون ، فأجيب عمداً بأنه احتشاد هراطقة ، فأمر بطردهم . وكان ثَم ضحايا جديدة ، وامتد الاضطراب إلى أفسس وهرقلية . . .

حينئذ كتب يوحنا ، وهو لا يزال محبوساً فى داره ، لأساقفة رومة وميلانو وأكويلية ليوقفهم على ما حدث ، ويطلب تدخلهم لتهدئة الاضطرابات ولطلب إنصافه . تلك الرسالة ، بنص واحد للمراسَلين الثلاثة ، هى نموذج للوضوح والموضوعية الهادئة .

النفى النهائى

فى ٩ يونية ٤٠٤ ، الخميس بعد العنصرة ، كان يوحنا لا يزال فى قصره . فألح سيفريانوس على أركاديوس ، وأصدر هذا الأمر بالنفى . بُلِّغ إلى يوحنا فصرّح بأنه يذعن للبطش الجائر. أراد الذهاب ليصلى فى كاتدرائيته ، وكان الشعب فى انتظاره ، لأن كل الأخبار لا تلبث أن تُعرف . ودّع أوليمبياس ومرؤوساتها الواقفات ذواتهن على خدمة الكنائس ، وطلب منهن الطاعة لخلفه ، أيًّا كان ، لخير الكنيسة . ثم انطلق فى الخفية ، فوصل إلى الميناء وأركب سفينة ذاهبة إلى بيتينية .

إذ رأى الشعب خيبة انتظاره ، فار فائره ، فأحرق الكاتدرائية واتُّهم بتلك الكبيرة أتباع يوحنا ، فحدّث — ولا حرج — عن أنواع التحقيق ، التضييق ، الدعاوى ، بل الإعدام . بعد ذلك بدأ الاضطهاد الرسمى مع ألوان الإرهاق من قِبل الموظفين والعزل والنفى ؛ وقد حبط كل ذلك بإزاء أمانة « اليوحناويين » ، وهو النعت الذى كان الخصوم يتبجحون بإطلاقه عليهم . بين ذلك صار أرساسيوس أخو نكتاريوس ، وهو شيخ ابن ثمانين عاماً ، أسقف القسطنطينية .

انتظر المنفى فى نيقية حتى ٤ يولية أن يعيّن مكان منفاه النهائى . ثم

سافر إلى كوكوزة ، وهو سفر سبعين يوماً فى ظروف مرُهقة لصحته الرقيقة . على الطريق كانت إهانات سافلة من قبل بعض الزملاء تتبع مظاهر انعطاف مشجعة . فى قيصرية قبادوقية تفاقم حال يوحنا بحيث خُشى عليه سوء المصير ، ثم حدث تحسن فعاد الموكب إلى الانطلاق . وقد لازمه اضطهاد رهبان قُساة وأعداء ألدّاء للمنفى. أخيراً وصل الموكب إلى كوكوزة فى أواسط سبتمبر ٤٠٤ . وسيبقى يوحنا فيها ثلاثة أعوام .

قد استُقبل هناك بمجانى الالتفات المقرون بالتوقير . مما ساعده على تجديد قواه وتناسى آلام السفر الجسدية والنفسية . مع ذلك قد شعر بثقل وطأة المراقبة له وبُعد أصدقائه . كان يكتب لهم فيجيبونه . بيد أن ذلك لا ينوب مناب الحضور . . . عندنا من ثم مئتان وخمسون رسالة خطها يوحنا إبان منفاه ، فيها يوقف على أخباره . بفطنة فى بعض الأحيان . لئلا يُثير القلق . يكتب لتعزية الذين يقاسون الاضطهاد حتى يكونوا أمناء له ؛ يكتب لأولمبياس ليزيل ضيقاتها وأساها ويحثها على الأمل والسرور . لا ينسى أشغال الكنيسة وتقدم الرسالات . بل يؤيد هذه بنصائحه وأنواع تدخله .

الغرب يتأثر

كان يوحنا ينتظر بثقة نتيجة رسائله إلى الغربيين الثلاثة . ثاوفيلوس قد وقف على ذلك ، فحاول أن يتقى سوء العاقبة ، وكتب لإينوشنسيوس بابا رومة فى ربيع ٤٠٤ . . أجاب إينوشنسيوس ثاوفيلس قائلاً إنه « ينقض الحكم » الذى « يظهر أن المدعو ثاوفيلس قد حكمه » ، وفارضاً عقد مجمع آخر . بين ذلك كان باقياً على اتحاده بيوحنا وثاوفيلوس على السواء . ثم كتب إينوشنسيوس . بعد تحقيق مُحكم، رسالة ثانية إلى ثاوفيلوس . فانهال فيها عليه تعنيفاً . وسمى « مجمع » السنديانة « محاكمة جديرة بالهزء » . وأعلم مخاطَبه وجوب مثوله أمام المجمع المنوى انعقاده . من جهة أخرى أبى إينوشنسيوس مباشرة الاتحاد بأرساسيوس القسطنطينى ، الذى يعدّه دخيلاً . ورفض الاتحاد ببورفيريوس الأنطاكى ، عدو يوحنا . الذى كان قد خلف فلافيانوس فى ظروف مناقضة للعقل السليم . على ذلك المنوال أظهر بوضوح تأييده ليوحنا .

ربثما يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك وخيراً منه ، كتب ليوحنا رسالة تعزية . وأخرى لإكليرس القسطنطينية الأمين للمنفى ، مصرحاً بأن يوحنا هو أسقف المدينة الشرعى الوحيد .

أواه ! المجمع العام الذى أراده البابا لم يمكن انعقاده . هونوريوس إمبراطور الغرب كتب ثلاث مرات لأخيه أركاديوس أن « المكيدة التى

كان الأسقف يوحنا ضحيتها » يجب إزالة عواقبها ؛ أركاديوس أصم أذنيه، بل لم يُجب أخاه. حينئذ التأم مجمع غربى وأمر بأن يُجلس يوحنا ثانية على كرسيه ، بحيث يتمكن من الذهاب إلى المجمع العام القريب انعقاده ، بصفة أسقف القسطنطينية . ثم أوفد سفراء إلى عاصمة الشرق ، فعوملوا أقبح معاملة ، وأعيدوا إلى إيطالية بعد أن أوسعوهم تعييراً . فكانت النتيجة الوحيدة لمساعيهم تفاقم اضطهاد « اليوحناويين » . استشاط إينوشنسيوس غضباً وقطع اتحاده بكل الشرقيين أعداء يوحنا وبثاوفيلوس .

نشاط يوحنا

كان يوحنا يكتب من منفاه . نضرب مثلاً على ذلك كتابته لرسالات فينيقية التى اهتم بها منذ أوائل أسقفيته ، فهو يجود بالنصائح لفائدتها ، ويصير برسائله مجنّد مرسلين . كان يكتب أيضًا لعلية الأعيان الثابتين على علائقهم معه ، ويستقبل بعض الزوار .

الشتاء الواقع بين عامى ٤٠٥ و ٤٠٦ كان شاقًا بسبب البرد القارس وكذلك بسبب غارات الأيزوريين غير المنقطعة . فاضطُر يوحنا أن يلتجئ إلى أرابيسوس لزيادة أمنه ، ثم رجع إلى كوكوزة فى ربيع ٤٠٦ .

فى أثناء الصيف بلغه ما أصاب الوفد الرومانى من الحوادث المؤلمة

وسوء نصيب بعض أعضائه . وقف أيضاً على انتخاب أتيكوس خلفاً لأرساسيوس ، والعودة إلى اضطهاد رعاياه . . . كتب لإينوشنسيوس حتى يشكره ، لفينيريوس الميلانى (de Milan) وكروماسيوس الأكويلى وللسفراء ، وكذلك لعدة أساقفة آخرين من الغرب كانوا قد سعوا لمصلحته . يواصل تشديد شجاعة أوليمبياس وإيمانها بإرساله إليها بالمقالة التى عنوانها « لا يمكن أن يصاب أحد بضرر ما لم ينتج عن عمله الشخصى » . يكتب أيضًا « للذين يتشككون » من رؤية انتصار الشر والظلم .

الشتاء الواقع بين سنتى ٤٠٦ و ٤٠٧ قد انقضى بدون مصاعب مفرطة . بيد أن أعداء يوحنا فى القسطنطينية كانوا ساهرين ، وصيته قد حال دون رقادهم . لم يجهلوا فحوى الرسائل التى كان يكتبها لمراسليه العديدين . أفدوكسية كانت قد ماتت فى ٦ أكتوبر ٤٠٤ ، وقد حسُن لدى القوم أن يروا فى تلك الوفاة عقاباً إلهيًّا . لم يستطع سيفريانوس منذئذ الاتكال عليها ، لكنه قادر على مواصلة اعتماده على أركاديوس الضعيف العزم . فطلب منه أن ينفى يوحنا إلى مكان أقصى ، إلى بيتيونْت الواقعة فى سفح جبل القفقاس. كان القرار الإمبراطورى واجب الإنفاذ على الفور ، وقد أمر جنود الموكب أن يقودوا المنفى إلى مقره الجديد بسير مفرط السرعة ، وقد افتخروا بكونهم قد وُعدوا بترقية مرتبهم إذا اتخذوا التدابير اللازمة ليموت يوحنا على الطريق .

المجد لله فى كل شىء . آمين

انطلق الموكب فور وصول القرار ، فى أواسط يونية ٤٠٧ ، وكان القيظ لا يُطاق . كان كل جنود الموكب ، ما عدا واحداً ، وحوشاً هائلة ، يُبعدون بلا رحمة كل الراغبين فى إبداء شفقتهم ليوحنا . كانوا يتعمدون المشى تحت أشد الأمطار المصحوبة بالعواصف ، أو فى صميم شمس الظهر ، وقد قوى يوحنا ثلاثة أشهر على تجشم ذلك .

فى ١٣ سبتمبر ٤٠٧ وصلوا إلى كومانة ثم تجاوزوها . وخيّم الموكب فى جوار كنيسة صغيرة مكرسة للقديس باسيليسكوس ، أسقف كومانة الشهيد . قضى يوحنا الليل فيها ، ورأى فى الحلم الشهيد يضرب له موعداً فى الغد .

حين لاح الصباح ، طلب يوحنا من الجنود عدم مباشرة السير إلا حول الساعة الحادية عشرة ، فأذاقوه رفضاً شرساً وانطلقوا فوراً . لم يطل بهم المشى ، فإن حالة يوحنا قد اضطرتهم إلى الرجوع بسرعة إلى الكنيسة الصغيرة التى غادروها من زمن قصير . فطلب يوحنا أن يُلبس ثوباً أبيض ، وتناول ، وقبل أن يُسلم الروح ، قال كلمته المفضّلة : « المجد لله فى كل شىء ! آمين » .

« فتنة فمك ، مثل مصباح ساطع ، قد أنارت الكون أجمع . قد استودعت العالم كنوز النزاهة وأرتنا سمو التواضع . يا أبانا يوحنا الذهبي الفم ، بينما تعلمنا بأقوالك ، اشفع عند الكلمة ، المسيح إلهنا ، لأجل خلاص نفوسنا » .

(الطقس البيزنطى)

« نتوسل إليك ، يا رب ، أن تقوّى النعمة السماوية كنيستك ، التى أردت أن تُشهرها بمجيد استحقاقات وتعاليم الطوباوى يوحنا الذهبي الفم ، حبرك والمعترف بك » .

(الطقس الرومانى)

بلاغات لرجال أمس واليوم

معنى تفوق الله

« وكانوا يتصايحون : قدوس ، قدوس ، قدوس ، رب الصباؤوت» . أجل ، قدوس فى الحقيقة من أهّل طبيعتنا لمعرفة تلك الأسرار الفائقة العظمة ، وأشركنا فى مثل هذه الأسرار . الارتعاب والارتعاش يتملكانى على نغمة مثل ذلك الترتيل . ولا بدع بكونى راجفاً ، أنا الذى لست سوى صلصال وتراب . فإن القوّات العلوية ذاتها يأخذ منها الرعب كل مأخذ بدون انقطاع . ولذلك تدير وجوهها وتبسط أجنحتها مثل حائط لاتقاء الإشعاع غير المحتمل الصادر من الله . مع ذلك ما كان يتراءى لهم لم يكن سوى صورة مصغرة للحقيقة .

ولماذا لا تقوى على احتمال سطوعها ؟ أتسألنى أنا ذلك السؤال ؟ اذهب وسل بالأحرى أولئك الذين ينقّبون ، برغبة فى المعرفة ، عن طبيعة الله الفائقة الوصف والسعيدة ، أولئك الذين هم ذوو أنواع الجسارة فى غير محلها على وجه الإطلاق . بينما السارفيم لا يستطيعون حتى مشاهدة الله ، الذى لا يتجلى لهم إلا بالتنازل إلى ضعفهم ، يوجد من الناس من يتجرأون ويتصورون فى عقلهم تلك الطبيعة عينها التى يعجز الكاروبيم عن إدراكها ،

فيزعمون أنهم قادرون على رؤيتها بوضوح وبلا حدود ! فارتعدى ، أيتها السماء وكونى فى الدهشة ، أيتها الأرض .

(الميمر ٢ على أشعيا ، الرقم ٢)

الحياة بحضرة الله

إذا رأينا الله على الدوام بعيون نفسنا ، إذا انطلق فكرنا بلا انقطاع إلى تذكره ، فكل شيء يبدو لنا سهلاً خفيفاً . إذا كان من يتذكر صديقه ، يُنهض شجاعته ويفرح بتذكاره ، فكيف يمكن أن يكون حزيناً أو مرتعباً أو خائفاً من الخطر من يتذكر الإله الذى قد تنازل وأحبنا ؟

(الميمر ٢٦ على الرسالة إلى العبرانيين ، الرقم ٣)

الله لا يتكلم بحيث لا يقول شيئاً

ولكن ربما قلت لى : « الله فائق اللطف ! » أينتج من ثم أن الغنىّ الذى احتقر لعازر ، والعذارى الطائشات اللواتى رذلهن المسيح ، أن كل ذلك كلام فارغ ؟ فإذاً الذين يكونون قد أعرضوا عن إطعام المسيح ،

لن يذهبوا إلى النار الأبدية المهيأة للشيطان ؟ . . . أيكون ذلك مجرد تهديد إلهي بدون مفعول ؟ تقول لى : « بلا شك » . أرجو أن تجيبني ؛ من أين لك هذه الجسارة أن تفوه علانيةً بمثل تلك الأشياء ، وتُبدى باسمك الخاص مثل ذلك الرأى ؟ سأبرهن لك ، بالاستناد إلى أقوال الله عينها وأساليب عمله ، أنك مخطئٌ . إن لم تؤمن بسبب المستقبل ، فآمن بسبب الماضى ، لأن الماضى المنصرم ليس مجرد تهديد ولا كلاماً فارغاً . من إذاً قد حول بالطوفان الأرض جمعاء إلى مستنقع ؟ . . .

(الميمر ٢٥ على الرسالة إلى الرومانيين ، الرقم ٤)

لماذا نصلى ؟

« ربما قال لى أحدكم : إن كنتُ باراً ، فما حاجتى إلى الصلاة ، لأن البرارة كافية لتجعلنى أعمل باستقامة ، ولأن الذى يقصد استجابتى عالم ما يلزمنى كل العلم ؟ »

— لماذا نصلى ؟ لأن الصلاة ليست أدنى رُبط المحبة التى تقيدنا بالله : تعوّدنا محادثته ، وتهدينا إلى حب الحكمة الحقيقية . من يدأب على معاشرة سرىّ ممتاز بمناقبه ، يجن أعظم فائدة من هذه المخالطة ؛ أما الذى يلازم معاشرة الله ، فيجنى أعظم جداً منها .

(على المزمور ٤ ، الرقم ٢)

هل أنت متوسل أو مشتك ؟

من يتقح بحيث يريد أن يعمل الله ما يضاد الشريعة التى سنها ؟ من يصلى إلى الله لإيذاء أعدائه ، فإن ذلك مناقض لشريعة الله . قد قال لنا الله : « أعفوا المديونين لكم من ديونهم » ، وأنت تطلب التدخل لضرر أعدائك من الذى أمرك بالعفو عنهم ؟ هل من جنون شر من هذا ؟ حين الصلاة يجب أن نقف موقف السائل ونتخذ عقليته وعواطفه ؛ أما أنت فتريد القيام بعمل المشتكى . . .

(على المزمور ٤ ، الرقم ٢)

فوائد الصلاة

من يصلّ ينل بصلاته خيرات عظيمة ، حتى قبل نيله التى يطلبها . الصلاة تسكّن اضطرابات النفس ، تُخمد الغضب ، تطرد الحسد ، تطفىء الجشع ، تُنقص وتخفف التعلق بخيرات هذه الأرض ، تجعل فى النفس سلاماً شديداً ، وبالإجمال ترفع إلى السماء .

(على المزمور ١٢٩ ، الرقم ١)

الشكر على الدوام وفى كل مكان

أرجو منكم تجنب الإهمال ! ليتروَّ كلٌّ منكم ، بقدر قواه ، فى باطنه ، كل ساعة من النهار فى الخيرات التى مُنحها ، لا مجرد التى يشاطره إياها جميع البشر ، بل أيضًا التى نالها نيلاً شخصيًّا ، لا مجرد التى يعترف بها كل الناس ويعرفها كلهم ، بل المختصة به ، التى يعلمها هو وحده . هكذا نحث ذواتنا على شكر الله بدون انقطاع ، والشكر هو أكبر تضحية ، التقدمة الكاملة . سبب ثقتنا بالله والدليل عليها .

(الميمر ٩ على سفر التكوين ، الرقم ٥)

متى أذنبت ...

متى أذنبت ، فابك على ذنبك ، لا لأنك سوف تُعاقَب عليه — وذلك ليس داعياً مقبولاً — بل لأنك قد أهنت مولاك الفائق اللطف والحب ، الذى بلغ به الاهتمام الشديد بتخليصك حد إسلام ابنه نفسه لأجلك . فنُح لذلك الداعى ونح بلا انقطاع . . .

(الميمر ٤ على الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس ، الرقم ٦)

إن أردت أن يُغفر لك ، فاغفر لغيرك

لنهتم كل الاهتمام بالابتعاد عن كل حقد و بمصالحة من لهم ما يطالبوننا به . لنوقن كل الإيقان أنه لا صلاة ولا صوم ولا صدقة ولا اشتراك فى الأسرار المقدسة ولا شيء آخر قادر على المدافعة عنا فى يوم الدينونة ، إذا حفظنا تذكار الإهانات الملحقة بنا ؛ وبعكس ذلك أنه من المحال ألا يُغفر لنا نحن، مهما كان عدد الذنوب المدنسة لنا ، إذا استطعنا الانتصار على أحقادنا . . .

(على مثل العشرة آلاف وزنة ، الرقم ٧)

« هكذا سوف يعاملكم أبوكم السماوى إن لم يعفُ كلٌ منكم عن أخيه من صميم قلبه » .

ذلك المثل يفيدنا جدًا بشرط أن نُحكم الانتباه له . فى الواقع ، هل لنا فيما يجب أن نغفره لغيرنا ، ما يُقاس بما يغفره الرب لنا نحن ؟ إذا أردنا العفو ، فإنما نعفو لمصلحة أشخاص هم خُدام الله مثلنا ؛ بينما الرب ذاته يمنحنا العفو عنا ، ونحن خدامه ، لا غير .

أحسن ملاحظة كل الإيضاحات : ليس مكتوباً « إن لم تغفروا للناس زلاتهم » فقط ، بل « إن لم يغفر كل منكم لأخيه زلاته من صميم

القلب » . لاحظْ كيف يريد المسيح أن يكون قلبنا فى السلام والهدوء ، وأن تكون روحنا بعيدة عن كل اضطراب ، محرّرة من كل شهوة ، وأن نُظهر لقريبنا كل حبنا المضطرم.

يسوغ أن نذكّر هنا ما قاله المسيح فى ظرف آخر : « إن لم تغفروا للآخرين زلاتهم ، فلن يغفر لكم الآب السماوى زلاتكم » . فلا نزعمن أننا ، بعفونا عن غيرنا ، نُنعم عليهم أو نهدى لهم هدية عظيمة . إنما نهديها لذواتنا ، نحن المستفدين منها . وإن لم نعفُ ، فليس إخوتنا البتة من نضرهم ، بل نهيئ لذواتنا عذاب الجحيم الهائل .

من ثم أرجو منكم إحكام تأمل تلك الحقيقة . لنمتنع عن ذكر ما سببه لنا الناس من الظُلامات والجروح والمشقة ؛ لنتحاش عن الحقد . لنعتبر عظم مكسبنا بالغفران وشدة الطمأنينة التى تمنحنا إياها ممارسته ، حين نمثُل بين يدى الديان الأسمى . فلنفكر على الأخص فى كوننا ، إذ نصالح من أساؤوا إلينا ، نمنح ذواتنا غفران خطايانا الشخصية .

فى المحن . . .

لا نتوهمْ أن المحن التى تصيبنا دليل على كون الله يخذلنا أو يهملنا . بعكس ذلك هى أعظم برهان على أنواع اعتنائه بنا ، لأننا ، ولو كان ثقل خطايانا فادحاً لنا ، نستطيع تخفيفه بإبداء صبر لا ينفد وبشكر الله

تعالى . وإن لم ينؤ بنا عبء خطايانا ، فإننا نفوز بنعم أعظم إذا احتملنا محننا بمعرفة جميل الله .

(الميمر ٣٢ على سفر التكوين ، رقم ٩)

ما أعجب اسمك !

باسمك فى الواقع ، قد غُلب الموت وحُطِّم ، وكُسرت الشياطين ، وتجدد فتح السماء ، وانفتحت أبواب الفردوس ، وأرسِل روح القدس من السماء . باسمك حُرر العبيد ، وصار من كانوا أعداءً بنين ، والغرباء وارثين ، والبشر ملائكة . ماذا أقول : ملائكة ؟ الله قد جعل نفسه إنساناً ، والإنسان قد جُعل إلهاً . السماء قد أخذت الطبيعة الصادرة عن الأرض ، والأرض قد حصلت على الجالس فوق الكاروبيم وكل جيش الملائكة ؛ قد أسقِط الحائط الفاصل إياهما ، ونُزع السياج . ما كان مقسوماً ومفصولاً قد وُحِّد ، وانقشعت الدياجى ، وسطع النور ، والتُهم الموت فى الانتصار . ذلك ما كان يفكر فيه النبي ، ما كان يُعلنه عن بعد ، وهو يقول : « ما أعجب اسمك فى كل أنحاء الأرض ! »

(على المزمور ٨ ، الرقم ١)

على العماد

.. . لماذا الماء ؟ سأقوله لكم وأكشف لكم سراً مكنوناً ؛ توجد فى هذا الشأن نُقط أخرى خاضعة للسر ؛ مع ذلك سأحدثكم عن نقطة موضوعها الكمية . ما هى؟ إنما يُحتفل برموز إلهية ، الدفن ، الموت ، الحياة ؛ وكل ذلك يتم بفعل واحد . حين نُغطس الرأس تحت الماء ، كأنه قبر ، تُدفن وتُغطس كل إنسانيتنا القديمة . وإذ نخرج بعدئذ ، فإنما يطفو ويخرج رجل جديد . كما أنه يسهل علينا أن نُغطس ذواتنا ثم نطفو ، هكذا يسهل على الله أن يدفن الإنسانية القديمة ويُلبسنا الإنسان الجديد .

الإغطاس مثلث لتعليمك أن كل ما ذُكر يتم بقدرة الآب والابن وروح القدس . ليس ذلك تخميناً بشريًّا ؛ جدير بك أن تسمع قول بولس : « لقد دُفنّا معه فى موته بالعماد » ، وأيضًا « إنسانيتنا القديمة قد صُلبت معه » ، وأيضًا « قد التقحنا عليه بشبه موته » . ليس العماد وحده المسمى صليباً ، بل الصليب عماداً : « ستعمَّدون بالعماد الذى أنا معمد به » ، وأيضًا « يجب علىَّ أن أعمَّد بعماد لا تعرفونه » . كما يسهل علينا الغطس فى الماء والخروج منه ، هكذا هو أيضًا قد مات وقام مثلما شاء ، بل بسهولة أعظم جداً ، مع أنه قد بقى فى الموت ثلاثة أيام بسر من أسرار التدبير الإلهى .

بما أننا قد عُددنا جدراء بتلك الأسرار الفائقة العظمة، فلنعش عيشة خليقةً بتلك العطية الفائقة العظمة ؛ فلنعش عيشة الكمال . أما أنتم الذين لم تعدوا حتى الآن جدراء ، فابذلوا قصاراكم لكي تصيروا ذوى جدارة ، لكى تكوّنوا معنا جسداً واحداً ، حتى نصبح إخوة . ما دمنا منفصلين على ذلك المنوال ، فإنه ، ولو كان أحدنا أباً ، والآخر ابناً ، وغيره أخاً أو صاحب مزية أخرى ، فإنه ليس ، فى الحقيقة حتى الآن من العائلة ذاتها ، لأنه غريب فى ميدان القرابة الروحية . ما الفائدة من اتحادنا بالقرابة الناتجة عن صلصالنا المشترك ، إن كنا غير متحدين روحياً ؟ ماذا تجدينا قرابة أرضية ، ونحن غرباء عن السماء ؟ فإن المستعد للعماد غريب فى نظر المؤمن .

(الميمر ٢٥ على إنجيل القديس يوحنا ، الرقم ٢)

ابن الله أم وحش ضار؟

« أبانا الذى فى السموات » ؛ أى لطف نحو البشر ، أى مكانة ، أى امتياز ! أيوجد كلمات للتعبير عن شكرنا للذى منحنا مثل تلك العوارف؟ . . . لم تعلّم سدى لفظ تلك الألفاظ ؛ حين يفوه فمك بذلك الاسم اسم الآب ، يجب أن يستولى عليك الاحترام وأن تتشبه بلطفه ، كما كُتب فى موضع آخر : « تشبهوا بأبيكم الذى فى السموات ، الذى

يُطلع شمسه على الأشرار والصالحين ، ويُنزل المطر على الأبرار والطالحين .
من كان ذا فؤاد قاس صلب ، لا يسوغ له أن يسمى أباً إله اللطف ، لأنه لا يصون في ذاته سمة الآب السماوى ، بل يحوّل ذاته إلى وحش ضار ، ويخسر شرف ابن الله المختص به ، وفقاً لقول داود : « الإنسان عادم الفهم فى بذخه ، فيشبه الماشية العادمة العقل ، ويصير مثلها » .
من ينقضّ شبه ثور شديد الهياج ، ويتصلب برأيه كالبغل ، ويتذكر الإهانات كالجمل ، وينهم كالدب ، ويجشع كالذئب ، ويعض كالحية ، ويراوغ كالثعلب ، ويشبق كالحصان الثائر ، هل يسوغ له أن يتكلم كلام الابن وأن يدعو الله أباه ؟ . . . بعكس ذلك ، كل من يُبدى للقريب وداعته وإنسانيته ، ولا ينتقم من المسيئين إليه ، ويقابل الشر بالخير ، ليس البتة عرضةً للعقاب حين يسمى الله أباً . . .

(على الصلاة الربية ، الرقم ٣)

هذا هو جسدى . . .

لنثق بالله ثقة مطلقة ولا نخالفه أدنى مخالفة ، ولو ظهر لنا ما يقوله لنا مناقضاً لتعقلاتنا ولذهننا ؛ بعكس ذلك ليكن قوله أقوى من عقلنا أو تعقلاتنا . لنفعل هكذا فيما يتعلق بالأسرار القربانية ؛ لا نقصر اهتمامنا على ما نراه فقط ، بل نتمسك بالأقوال . فإن كلام الله لا يخدع ، بيد

أنه يمكن انقياد حواسنا بسهولة للخداع . كلامه لا يزول ، لكن حواسنا تعثّر بتواتر مفرط . بما أن كلامه يقول لنا « هذا هو جسدى » ، فلنثق به ونصدّقه ونشاهده بعيون نفسنا . فإن ما أعطانا المسيح إياه ليس شيئاً واقعاً تحت الحواس ؛ حتّى ما هو حقيقة نشعر بها ، هو بكليته من العالم الروحى . على ذلك المنوال ، فى العماد ، بواسطة الماء ، وهو حقيقة حسية، تُعطى وتخوّل النعمة ، ويتم على وجه روحى الميلاد الجديد ، تجديد طبيعتنا . لو لم يكن لك جسم ، لكان الله قد منحك عطايا روحية محضة . بيد أن النفس متحدة بالجسد ، فالله يعطيك خيرات روحية بواسطة أشياء حسية . كثير من النصارى يقولون اليوم : « ليتنى رأيت شخصه وشاهدت محياه وثيابه وحذاءه ! » والحال أنك تراه وتلمسه وتأكله .

فلا يتقربْ أحد من هذه المائدة بدون شهوة أو بتوان ، بل ينبغى للجميع أن يأتوها مضطرمين بحرارة التقوى وبالشجاعة . إن كان اليهود قد أكلوا بسرعة حمل الفصح ، وهم واقفون محتذون ، والعصا فى يدهم ، فيجب عليك أن تفوقهم جدًّا بالبسالة. كانوا على أهبة السفر إلى فلسطين ، ويظهرون منذئذ بمظهر المنتصرين ؛ أما أنت فإنك راحل إلى السماء !

(الميمر ٨٢ على إنجيل القديس متّى ، الرقم ٤)

اذهب وصالح أخاك !

هاكم ما أعلنه، ما أؤكده، ما أقوله بصوت رنان : لا يتقربْ من المائدة المقدسة ويتناول جسد الرب أحد الذين لهم عدو . لا يتقرب أحد ، وله عدو . ألك عدو ؟ فلا تدنُ . وإذا أردت الدنو ، فاذهب أولاً للمصالحة ، ثم تناول السر . لست أنا المتكلم هكذا ، هو الرب الذى يقول ذلك القول . هو الذى صُلب لأجلنا . لكى يصالحك أنت وأباه ، لم يأب القتل وسفك دمه . أما أنت فتأبى لمصالحة أخيك حتى لفظ كلمة أو الإقدام على مواجهته ؟ أصغ إلى ما قاله الرب فى شأن أمثالك : « إذا قدّمت عطيتك على المذبح . وتذكرت هناك أن لأخيك عليك شيئاً ... » ، لا يقول : انتظر أن يأتيك أو يقبل زيارة أحد مراسيلك القائم بمهمة مصالح ، أو أن تبعث إليه شخصاً آخر . بل يطلب فى الواقع أن تسرع أنت ذاتك إليه . فإنه يقول : « انطلق واذهب أولاً وصالح أخاك » . إنه لأمر لا يصدّق ! بينما الله لا يعدّ نفسه منتهك الشرف بكونه يرى ترك العطية المنوى تقديمها إليه ، أنت تعد ذاتك مفضوحاً إذا خطوت الخطوة الأولى لمصالحة أخيك !

(من عظة لأهل أنطاكية فى الصوم الكبير ، رقم ٥)

جسد واحد . . .

يجب أن نتعلم أى معجزة تصنعها الأسرار القربانية ، ولماذا مُنحت وما هى فائدتها . يقول الكتاب المقدس : « نحن جسد واحد ، أعضاء لحمه وعظامه » . فليُحسن الإصغاء إلىّ من لُقنوا حقائق ديننا .

يسوع يريد أن نصير جسده ، لا بالحب فقط ، بل فى الحقيقة باختلاطنا بلحمه ذاته . ذلك مفعول الطعام الذى يمنحنا إياه دليلاً على حبه لنا . يختلط بنا ، يُدمج جسده فينا ، لكى نصير وإياه كياناً واحداً ، كاتحاد الجسم بالرأس . هكذا يفعل ذوو الحب المضطرم .

من ثم ، حين نبتعد عن هذه المائدة المقدسة ، فلتكن شجاعتنا شجاعة الأسد ، ولنصر هول الشيطان . فلنفكر فى المسيح رأسنا وفى الحب الذى أبداه لنا . . .

لنحذر من ذواتنا ، أيها الأعزاء جداً ، ونحن مغمورون بمثل تلك المنن . إذا جُربنا بلفظ أقوال شائنة ، أو بتسلط الغضب أو بتجربة أخرى ، فلنعتبر العطايا التى عُددنا جدراء بها وروح القدس الذى مُنحناه ، فإن ذلك التروى يسكّن شهواتنا . حتّام نظل متعلقين بأشياء هذا العالم الحاضر ؟ كم من الوقت يدوم إباؤنا الاستيقاظ ؟ كم يطول عدم اكتراثنا لخلاصنا ؟ فلنتذكر الخيرات التى قد تنازل الله وأعطانا إياها ؛ لنشكره

ونمجده ، لا بمجرد إيماننا ، بل بأعمالنا ، لننال الخيرات المستقبلة بنعمة ولطف سيدنا يسوع المسيح ، الذى نود أن يكون به المجد للآب ولروح القدس أيضاً ، الآن وعلى الدوام وإلى دهر الداهرين . آمين .

(الميمر ٤٦ على إنجيل القديس يوحنا ، الأرقام ٢ و ٣ و ٤)

يستطيع الأزواج إرضاء الله . . .

« وأخنوخ أرضى الله بعدما ولد متوشالح » . ليفهم الأزواج ونساؤهم ويتعلموا فضيلة الصدّيق . ولا يزعموا أن الزواج سبب نقصان إرضاء المتزوجين لله . . . يجب ألاّ يظن أحد أن الزواج حائل دون الفضيلة . إذا كنا حكماء . فلا تهذيب الأولاد ولا الزواج ولا سبب آخر يمنعنا عن إرضاء الله . أخنوخ كان إنساناً مثلنا ، وقد أعوزه حتى قبولُ الناموس والتعليمُ المحتوى فى الأسفار المقدسة وأشياء أخرى من ذلك النوع ، ليهتدى إلى العمل بالحكمة الحقيقية . إنما أراد أن يرضى الله من تلقاء ذاته وبإرادته ، بحيث ظل حيّاً حتى اليوم بدون أن يجتاز الموت . لو كان الزواج ، أيها الأصدقاء الأعزاء ، أو تهذيب الأولاد عائقاً على طريق الفضيلة ، لما أدمج خالق الكون الزواج بتةً فى حياة الناس ، لئلا يحرمنا الأمر الجوهرى الضرورى ، وهو الفضيلة . ليس الزواج حائلاً دون عيشتنا

وفقاً للحكمة الإلهية ، إذا استعملناه باعتدال ، بل هو تعزية كبيرة .

(الميمر ٢٢ على سفر التكوين ، الرقم ٤)

ادعوا كاهناً [١] ...

في وسط الاضطراب والخلل هاهوذا الكاهن واصلاً ، وهو أرهب من الحمى ذاتها وأهول في عيون أقرباء العليل من الموت نفسه . يُعدّ وصول الكاهن سبباً لليأس أكبر من تصريح الطبيب المؤكد أن الحالة موجبة القنوط . وصول الكاهن ، وهو دليل على الحياة الأبدية ، يُعد علامة للموت ! ولم أبلغ حتى الآن ختام تلك الملاحظات ! في وسط هياج الأقارب المتأهبين ، كثيراً ما تغادر النفس الجسد ، أو إذا ظلت حاضرة ، فذلك لا يجدي نفعاً . المحتضَر لا يعرف أحداً ، لا يسمع حين يخاطَب ، لا يستطيع الإجابة قط . . . هو أشبه بحطبة أو حجر ، وقلما يختلف عن ميّت . . . فما عسى أن تكون فائدة تلقين الحقائق الدينية ، وقد أصبح الشخص فاقد الرشد على الإطلاق ؟

(للمنوى تعميدهم ، التعليم المسيحي الأول ، الرقم ١)

---

(١) في هذه الفقرة يتكلم يوحنا عن العماد الممنوح للمحتضرين على حسب عادات زمانه الجارية والموجبة الأسف . يسهل علينا تطبيق كلامه على أحوالنا الحاضرة .

حين الدفن . . .

ما هذا الجنون ؟ ألن يضحك عليه عادمو الإيمان ضحكاً طويلاً ؟ ألن يعدّوا إيماننا أسطورة محضة ؟ سيقولون : « لا حقيقة للقيامة ، فعقيدة النصارى ليست سوى خداع مضحك وفخ . فإنه إن لم يبق شيء بعد هذه الحياة ، وإذا كانت نساؤهم يبكين بكاءهن ، فسبب ذلك أنهم لا يقيمون أدنى وزن لكتبهم المقدسة ذاتها . ما كل ذلك سوى اختلاق ، وقد أجادت أولئك النساء إثباته . فلو آمنّ أن الميت ليس فى الحقيقة ميتاً ، بل منتقلاً إلى حياة خير من هذه ، لم يبكين كأنه غير موجود منذ الآن ، لم يضطربن ويقلن أقوالاً ملأى بعدم الإيمان : « لن أعود إلى رؤيتك ، لن أجدك ثانيةً ! » عند ذلك القوم ليس كل شيء سوى أسطورة ؛ إن لم يؤمنوا بما هو أعظم الخيرات ، فكيف يؤمنون بكل الباقى ؟

ليس الوثنيون مخنثين إلى ذلك الحد : فإن الحكماء كثيرون عندهم . عرفت امرأة وثنية أن ابنها قد مات فى القتال ، فسألت فوراً ما حالة الوطن . . . إنى لأخجل من رؤية الوثنيين يمارسون الحكمة ، بينما نسلك نحن سلوكاً جد سيء . من يجهلون كل شيء مختص بالقيامة ، يسلكون

كأنهم يعرفونها ، ومن يعرفونها يسلكون كأنهم يجهلونها ؛ وكثيرون يفعلون عن حياء بشرى ما لا يفعلونه لوجه الله . من أمثال ذلك أن النساء الوجيهات لا ينتفن شعرهن ولا يعرّين أذرعهن . والحال أن الأمر النميم إلى الدرجة القصوى ليس أنهن لا يعرين أذرعهن ، بل أنهن يمتنعن عن ذلك لمجرد بقائهن فى حداد مستحسَن ، ولا ينقدن لداعى التقوى . سلامة الذوق تردعهن عن البكاء ؛ أما خوف الله فلا يردعهن ! فكيف لا تلام تلك العقلية ؟ كان يليق أن ما تعمله نساء الخاصة لأنهن من الخاصة ، تعمله أيضًا نساء العامة عن مخافة الله. على أن العالم فى أيامنا منقلب رأساً على عقب ؛ بعض النساء يساكن بحكمة عن كبرياء ، وغيرهن يساكن بعدم لياقة لخلوهن من علو النفس . هل من خلل شر من ذلك ؟ أجل ، إننا نعمل كل أعمالنا عن حياء بشرى . . .

ربما قلتِ : « ما هذا ؟ أحرام أن أبكى على موت زوجى ؟ » كلا ، لا أحرّم ذلك ؛ إنما أنهى عن قرع الصدر والبكاء بلا اعتدال . لست قاسياً ولا عادم الإنسانية ؛ أنا عارف أن الطبيعة ضعيفة ... فلا يسعنا عدم البكاء ، كما أثبت المسيح نفسه ، فقد بكى على لعازر . فابكى أنت أيضًا ابكى ولكن بهدوء ، بحياء ، بخوف الله . إذا بكيت هكذا ، فلا تبكين كأنك لا تؤمنين بالقيامة ، مثل من لا يصبر على الفراق . فإننا نرافق أيضاً بدموعنا المسافرين إلى مكان بعيد ، بيد أننا لا نبكى كأننا يائسون من رؤيتهم ثانيةً . فابكى أنت هكذا ، كأنك ترضين برحيل شخص سوف تلاقينه . . .

ما يكرم الميت ليس العبرات والصيحات . بل إنشاد التراتيل والمزامير وكمال العيشة التى نعيشها . فإنه قد رحل ليحيا مع الملائكة ، وإن لم يحضر أحد جنازه . بعكس ذلك ، من مات فى الطلاح ، فمن الممكن أن تسرع المدينة جمعاء إلى جنازه : بدون أدنى فائدة له . أتبغين تبجيل زوجك المتوفى ؛ فاطلبي وسائط أخرى : تصدق ، اصنعى الخير ، اخدمى غيرك . ماذا تفيدك كثرة البكاء ؟

لكنى سمعت رواية أمر أثقل ذنباً : قيل إن بعض النساء يجتذبن بدموعهن التائقين إلى تزوجهن ، فإنهن ، بشدة حزنهن ، يفزن بصيت نساء ممتازات بحب زوجهن ! ياله اختراعاً شيطانياً ! يا لها حيلة من حيل إبليس ! . . . فكيف نُقنع الوثنيين بعد ذلك ؟ كيف نقنعهم بالقيامة والفضائل عندما نحدثهم عنها ؟

(الميمر ٦٢ على إنجيل القديس يوحنا ، الرقمان ٤ و ٥)

الأساقفة والكهنة

فى الكنيسة ، حين سيامة الأساقفة . يوضع على رأسهم إنجيل المسيح ليعرف المسيم أنه ينال التاج الحقيقى الذى هو الإنجيل ، ليعرف أنه ، ولو كان رئيس كنيسته ، فهو أيضاً مع ذلك خاضع لسلطة الشريعة

الإنجيلية القائلة : « إن من يأمر الجميع هو تحت حكم الشريعة ، ومن يفرض أوامره على الجميع ، يقبل هو أيضًا أوامر الشريعة» . من ثم قد كتب سريّ من قدمائنا ، القديس أغناطيوس ، الفائز بشرف الحبرية والاستشهاد المزدوج ، لأسقف آخر هذه العبارات : « لا يُعملْ شيء بدون إرادتك ؛ أما أنت فلا تعمل شيئاً بدون إرادة الله » . إذا كان الإنجيل قد وُضع على هامة الحبر ، فذلك للدلالة على خضوعه لساطة . . .

فيجمُل بالكاهن أن يكون ذا خبرةٍ ورعة في الحكمة ، وأن يقدّم سيرته إلى الشعب قدوةً يقتدى بها . . .

زهور الثوب الكهنوتي هي المواجهات ، الأحاديث ، الأخلاق الطاهرة ، الكلام اللطيف ، الإيمان ، الصيت الحسن ، الحقيقة ، العدل . بين تلك الزهور توضع الجلاجل[1] . وتوافق أنغام الأعمال الصالحة ، فإن كل فضيلة تُصدر صوتاً رخيماً . ومن ثم قول بولس : « بواسطتكم قد رن كلام الله » . ومتى أخذ يرن ؟ كان يسوع يجوب المدن . معلماً في كل مدينة وشافياً كل مرض وكل عاهة في الشعب . وقد انتشرت في العالم أجمع رنة ذلك السلوك . . .

(الميمر على المشترع ، الرقمان ٤ و ٥)

---

(١) هنا يقارن يوحنا رموز ثوب الكاهن الأعظم عند اليهود برموز الثوب الروحي المختص بالكهنوت المسيحي ؛ ولذلك قد ذكر التاج والزهور والجلاجل (راجع سفر الخروج ، ٢٨) .

ليوم الميلاد

ماذا أقول ؟ كيف أتكلم ؟ إن معجزة كهذه تجعل الدهش يأخذ مني كل مأخذ . القديم الأيام قد صار طفلاً صغيراً ؛ الجالس على العرش الأسمى في أعلى السماء منسطح في مذود . المستحيل لمسه ، البسيط ، غير المركب ، عادم الجسد ، تلمسه أيد بشرية . الفاك قيود الخطيئة مقيد بقمط لأنه قد شاء ذلك — قد اعتزم أن يحوّل الحقارة إلى شرف ، أن يُلبس العار مجداً ، وأن يُظهر أن حدود التواضع هي حدود القوة . من ثم قد احتمل ذل جسدي لأتمكن من الاتحاد بالكلمة الأزلي . يأخذ لحمي ويعطيني روحه . وبالعطاء والأخذ يهيء لي كنز حياة . أخذ لحمي ليقدسني ؛ يعطيني روحه ليخلصني . . .

في هذا اليوم القيد القديم مفكوك . الشيطان مخزيّ . الأبالسة هاربون ، الموت مهدوم ، الفردوس مفتوح ثانية . اللعنة مُلغاة . الخطيئة مدحورة ، الضلال مكبّل والحقيقة عائدة . كلام التقوى منتشر في كل مكان ، فهو يهرول عبر العالم ؛ كيفية حياة السموات قد رُكزت على الأرض ؛ فالملائكة في اتصال بالبشر ، والناس يكلمونهم بدون أدنى خوف . لماذا ؟ لأن الله قد جاء على الأرض ، والإنسان قد أدخل السماء ؛ ذلك هو التبادل العظيم . . .

ماذا أقول أيضًا ؟ كيف أتكلم ؟ أرى نجاراً ، منوداً ، طفلاً ، قُمطاً ، عذراء تلد فى الفقر المدقع : كل شيء فقرى ، كل شيء ينم فقراً . ولكن انظر ، يا صاح ، ما أكثر أنواع الغنى فى هذا الفقر ! كيف جعل ذاته فقيراً لأجلنا ، وقد كان غنيًّا ؟ . . . لله درك ، أيها الفقر ، ينبوع غنانا !

(الميمر ٢ على الميلاد ، الرقم ٢)

فى أول أسبوع الآلام

الأسبوع الحاضر هو لنا بمثابة الميناء لربابنة السفينة ، المكافأة للعدّائين ، الإكليل للمصارعين . هو مصدر كل الخيرات ، وفيه نحارب لنيل الإكليل . من ثم نسميه الأسبوع العظيم . ليس سبب ذلك أن أيامه أطول من غيرها ، إذ توجد أيام أطول منها ، ولا أن أيامه أكثر منها فى غيره ، فكل الأسابيع ذات سبعة أيام .السبب هو أن الرب قد صنع عظائم فى هذا الأسبوع .

فى الواقع ، إبان هذا الأسبوع الذى يُسمى عظيماً ، قد زال طغيان الشيطان الطويل، باد الموت ، غُلب القوى وبُعثرت أملاكه ، دُحرت الخطيئة ، ألغيت اللعنة ، فُتح الفردوس ثانيةً ، أسيغ دخول السماء ،

شرع الناس يتصلون بالملائكة ، هُدم الحائط الفاصل ، نُزع الستار ، وأتى إله السلام السماء والأرض بالسلام. لذلك دُعى هذا الأسبوعُ الأسبوعَ العظيم ،وكما أن هذا الأسبوع هو رأس الأسابيع الأخرى، هكذا رأسه هو سبت النور ، وما الرأس هو بالنسبة إلى الجسد ، فذلك شأن سبت النور بالنسبة إلى الأسبوع العظيم .

فمن المعقول أن جمهور النصارى ، فى هذا الأسبوع ، يشدد جهوده : البعض يزيدون أصوامهم ، وغيرهم الأسهار المقدسة ، وغيرهم يكثرون صدقاتهم . كل ذلك واسطة نشهد بها هكذا ، بالغيرة على الأعمال الصالحة والاهتمام بتحسين سيرتنا ، على عظم الخير الذى صنعه الله إلينا . كما أن كل مدينة أورشليم، بعدما أقام الرب لعازر ، قد شهدت بجمهورها الآتى لاستقباله ، على كونه قد أقام ميتاً — فإن غيرة الآتين لملاقاته كانت دليلا على الأعجوبة المصنوعة — هكذا فى أيامنا ، غيرتنا على حسن الاحتفال بالأسبوع العظيم ، هى العلامة والبرهان على عظم المآثر التى أنجِزت فيه قدماً . ونحن لا نخرج من مدينة واحدة ، مدينة القدس دون سواها ، نحن الذاهبين اليوم لملاقاة المسيح. فى العالم أجمع تذهب من كل الأنحاء شعوب لا تحصى من رعايا كل الكنائس ، لملاقاة يسوع . وليس ما تحمله وتهزه غصون النخل ، بل الصدقة ، انسانية ، الفضيلة ، الصوم ، الدموع ، الصلاة ، الأسهار وكل أنواع الفضيلة هى ما تقدمه إلى السيد المسيح . . .

(على المزمور ١٤٥ ، الشرح الثانى ، رقم ١)

الجمعة الآلام

اليوم سيدنا يسوع المسيح على الصليب . ونحتفل بعيد ، فإنى شديد التوق إلى القول إن الصليب عيد واحتفال روحى محض . فى الماضى كان الصليب يعنى الحكم على شخص ؛ أما الآن فهذه الكلمة تعنى الشرف ؛ ما كان رمز العار هو الآن رمز الخلاص .

الصليب هو لنا ينبوع منن لا تحصى : هو الذى ينقذنا من الضلال ، وينير من كانوا فى الظلمات ، ويقربنا من الله . قد لاشى العداوة وأزال الحرب وصالح مع الله من قد صاروا غرباء عنه ، فأدخلهم فى عائلته ، وأتانا بالسلام وكفله لنا ؛ هو كنز جميع الخيرات . بفضله لا نظل تائهين فى الصحراء ، فإنه يدلنا على الطريق الحقيقى . ولسنا خارج القصر، فقد وجدنا الباب لندخله ثانيةً ؛ لا نخشى سهام إبليس الملتهبة ، فقد اهتدينا إلى الينبوع . بواسطة الصليب خرجنا من الترمل ، فقد مُنحنا زوجاً ، وقد زال عنا خوف الذئب ، فإن لنا راعياً قُحاً . وقد قال : « أنا الراعى الحقيقى » . بواسطته لا نخشى الطاغية ، فإننا فى جوار الملك . تلك هى أسباب احتفالنا بعيد ، عيد تذكار الصليب .

(على الصليب واللص ، الرقم ١)

فى صباح الفصح

أترى انتصار القيامة الباهر ؟ هى التى تمنحنا كل خير : تلاشى خداع الشيطان . تجعلنا نهزأ بالموت . نحتقر الحياة الحاضرة ونشتعل توقاً إلى الحياة المستقبلة . بواسطتها أخيراً نجد ذواتنا —على الأقل إذا أردنا — فى حالة تساوى بامتيازها حالة الملائكة . ولو كنا لا نزال متشحين بجسدنا . اليوم نحتفل بظفر انتصار مبين . اليوم يرفع سيدنا غنيمة انتصاره على الموت . يطأ طغيان إبليس . ويفتح لنا بقيامته طريق الخلاص . فلنفرح كلنا ولنهتز سروراً ولنكن فى ابتهاج شديد . مع أن السيد نفسه هو الظافر والمنتصر . نشاطره فرحه وتهلله . فإنما قد عمل كل أعماله ليخلصنا ؛ والوسائط التى تذرع بها الشيطان نحاربتنا . هى عينها التى استعملها المسيح للغلبة عليه .

(ليوم الفصح ، الرقم ٢)

مغزى صعود السيد المسيح

قدّم المسيح إلى الآب باكورة طبيعتنا ، وقد أجلّ الآب هذه التقدمة ، لرفعة المقدّم ولطهارة التقدمة ذاتها ، إلى حد كونه قد قبلها من يدى مهديها عينهما ، وجعلها فى أقرب جواره قائلاً له : « اجلس على يمينى » .

ولكن ما هى تلك الطبيعة التى قال لها الله « اجلسى على يمينى » ؟ من الواضح أن هذه الكلمات موجهة إلى التى كانت قد سمعت هذا القول : « تراب أنت وإلى التراب تعود » . ألم يكف أن تُرفع فوق السموات ؟ ألم يكف أن تكون بين الملائكة ؟ أما كان ذلك الإكرام وحده فائقاً للتعبير ؟

وأيم الحق ، كلاّ ! لقد ارتقت فوق الملائكة ، اجتازت مكانة رؤساء الملائكة ، فاقت مقام الكاروبيم والساروفيم ، صارت أعلى من القوات ، ولم تقف قبل استيلائها على عرش الرب ذاته . ألا ترى كل المسافة الفاصلة السماء عن الأرض ؟ أو لننطلق — وهو الأحرى بنا — مما هو أسفل ؛ ألا ترى البون بين الجحيم والأرض ، بين الأرض والسماء ، بين السماء وأعلاها ، بين أعلاها والملائكة ورؤسائهم والقوات السماوية وعرش الملك فى النهاية ؟ لقد جعل المسيح طبيعتنا تجتاز هذه المسافة كلها .

تأمل إذاً فى أى هاوية كانت قد تدهورت تلك الطبيعة فى دورها الأول ، وإلى أى سمو قد رُفعت . كان من المحال التدحرج إلى أسفل مما سقطت فيه الطبيعة البشرية ، ومن المحال أن تصعد إلى أعلى مما أصعدها إليه المسيح بعد إنهاضها .

(لعيد الصعود ، الرقم ٣)

فى يوم العنصرة

من كل النعم التى تُحدث خلاصنا . أتوجد واحدة لم يمنحنا إياها روح القدس . به قد أنقذنا من العبودية . ودُعينا إلى الحرية ، وهُدينا إلى التبنى ، به قد خُلقنا خلقاً ثانياً . على وجه ما . وبه نحط عن ذواتنا عبء خطايانا النتن . بفضل روح القدس نرى جمهور الأساقفة ، ولنا مراتب الملافنة . لأنه الينوع الذى تسيل منه موهبة الإيحاءات ونعم الشفاء ، وكل ما يجمّل الكنيسة صادر عنه . .

(لعيد العنصرة ، الرقم ١)

نموذج جدال لاهوتى

« سأبعث كثيراً من صيادى السمك وغيره » . ما هذا الصيد الجديد النوع ؟ من أخذ أمس يصاد اليوم . الأرض ملأى بمجد المسيح ؛ الإيمان يملأ الأرض كلها . من ثم ، بسبب تدبير الله فى شأن المتأنس ، لا تفكر أفكاراً غير لائقة برفعته . قد أذاع اليهود خبر كون قيامته المزعومة لم تكن سوى مسألة دراهم ، وكُرر أن التلاميذ قد سرقوا الجثة . بيد أن اليهود لم يحكموا حكمهم إلا على جسده ، بينما التلاميذ يعرّفون ألوهيته بجميع قواهم . بسعى اليهود ينتشر الضلال اليوم ، والكنيسة تقاومه بوعظها على الحياة الأبدية .

إيذن لى فى العودة إلى مثَل قديم : إخوة يوسف قد نصبوا له فخّاً ، فكان أبوه وعائلته يبكون عليه ، وهو حى ومالك على مصر . فى بيت يعقوب كانوا يبكون عليه كأنه ميت ، بينما كان فى مصر حيّاً ومالكاً على القُطر . هكذا فى أيامنا ، اليهود والهراطقة المتطرفون يعدّون المسيح ميتاً ؛ ينكرون أنه إله ويلاشون الإيمان بطرحهم أسئلة . أما عندنا فهو يحيا ويملك وينال سجودنا ، كما يليق . لأن قول الله قدير ، فهو باق ، وتعليم الرسل لا يُغلب . صوت بولس الصادق لم يرن سدى لمعالجة هذه المسألة . تعال ،

يا بولس الطوباوى ، وليحثك حب الحقيقة ؛ اغضب فى سبيل الإيمان ، وفى غضبك قل للهراطقة : « من عرّفكم أرسطاطليس ؟ من يجعل أفلاطون فوق الأناجيل ؟ من يدكّ مفعول الوعظ على الإيمان بطرحه أسئلة من لا إيمان له ؟ أين تعلمت الكلام عن غير المولود والمولود ؟ قد تركتم الآب ، ونبذتم اسم الابن ، وعددتم مكانة روح القدس دون غيرها . تتجه إلى تعابير بشرية ؛ أجل ، كما قال أرميا : « الإيمان قد زال عن كلامهم » . ماذا قال بطرس حين أعلِن طوباويًّا بسبب قوله ؟ قال « أنت المسيح ابن الله » ، ولم يقل « أنت من نسل غير المولود » . . . إذ كان الآب يوحى إليه حكمته ، أما كان يسع بطرس قبولها ؟ أما استطاع المسيح أن يقول للرسل ، لما أرسلهم ليعمدوا : « اذهبوا وعمدوا الشعوب باسم المولود وغير المولود ؟ » التقليد المختص بالأسرار قد وجد تعابير أسدّ من ذلك ؛ أما أنت فتريد وضع حد للألوهية ونبذ الإيمان وعرض مشاكل . ألا خف ، يا عدو الله . إنما القابض على المفاتيح بطرس ، وقد أعطيها لأنه قد قال : « أنت المسيح ابن الله » . فمن يسمعهم يتكلمون عن الابن ، سوف يفتح لهم باب الملكوت . أما جميع الذين يسمعهم يهينون المسيح بعدّه خليقة ، فسوف يغلقه لهم .

(أمام الحديثى العماد ، على الآية « فى البدء كان الكلمة » ، الرقم ٢)

طريقة الجدال . . .

من الأكيد أن تغيير الإنسان عقلية خصومه وتحويل أذهانهم لأعظم وأعجب من قتلهم . ومما يزيد صواب ذلك المبدإ أن الرسل لم يكونوا سوى اثنى عشر ، بينما كان سكان العالم أجمع ذئاباً .

فلنحمرّ خجلاً ، نحن العاملين بخلاف ذلك على وجه الإطلاق ، نحن المنقضّين كالذئاب على خصومنا . ما دمنا نسلك بصفة نعاج ، نكون منتصرين . ولو كان حولنا ألف ذئب . نحن أقوى منهم جميعاً وننال الظفر . أما إذا عملنا أعمال ذئاب ، فنكون مكسورين . لأن الراعى يحرمنا حينئذ معونته . هو راعى النعاج لا الذئاب .

(الميمر ٣٣ على إنجيل القديس متّى ، الرقم ١)

ألا اقرأوا ما كتب القديس بولس !

حين أصغى بانتباه إلى قراءة رسائل الطوباوى بولس مرتين كل أسبوع فى الغالب ، بل ثلاث أو أربع مرات عندما نحتفل بتذكارات

الشهداء القديسين ، أهتز من الفرح ، وقد استولت عليّ لذة سماع ذلك البوق الروحى ، وأنا مفعم حماسة ومشتعل بحب رقيق له ؛ أعرف صوت صديقى ، ويكاد يخيل لى أنى أراه أمامى وأسمع خطابه .

بيد أنى ، من جهة أخرى ، أتألم وأحتمل بصعوبة كون جميع الناس لا يعرفون ذلك العبقرى كما يجمل بهم . بل منهم من يجهلونه إلى حد كونهم لا يعرفون حتّى عدد رسائله معرفة كاملة . ليس سبب ذلك ، على كل حال ، خلوهم من الذكاء ، بل إنهم لا يريدون أن تكون على الدوام فى أيديهم كتابات هذا القديس .

أما أنا ، فما أعرفه — إذا صح أنى أعرف شيئاً — فليس مصدر تلك المعرفة أن لى عقلاً لا ند له . ما أعرفه ناتج عن كونى ذا محبة عظيمة لبولس ، تجعلنى لا أكف أصلاً عن مطالعة كتاباته . المحب يعلم أكثر من كل شخص سواه ، ما يتعلق بمحبوبه ، لأنه أكثر اهتماماً به . ذلك ما أوضحه القديس بولس عندما كتب لأهل فيليبى : « إنه لمن الصواب فى نظرى أن تكون لى نحوكم كل تلك العواطف ، لأنى حامل إياكم جميعاً فى قلبى ، أنتم المشاطرين إياى قيودى للدفاع عن الإنجيل ولتأييده » .

فإذا أردتم طوعاً ، أنتم أيضاً ، أن تصغوا بانتباه إلى قراءة رسائله ، فلا يمكن أن تطالَبوا بأكثر من ذلك ، لأن قول المسيح هذا حقيقى : « اطلبوا تجدوا ؛ اقرعوا يُفتح لكم » . من ثم ، بما أن كثيراً من المجتمعين هنا معنا قائمون بأعباء زوجة وأولاد تجب تربيتهم وعائلة ينبغى تدبيرها ،

لا يستطيعون لجميع تلك الأسباب أن يقفوا ذواتهم وقفاً كاملاً على تلك المهمة . ليبذل جهده إذاً كل منكم للحصول على نتيجة شغل جميع الذين اتسع وقتهم للإكباب عليها . فاهتموا بالإصغاء إلى شروحهم بقدر ما يكون اهتمامكم بكسب كل أموال هذا العالم . . .

(مقدمة لرسائل القديس بولس)

هل الغنى شر ؟

لا أتكلم لأجرّم الأغنياء على الإطلاق . بل الأغنياء المسيئين استعمال ثروتهم. الغنى ليس شرًّا إذا أردنا استعماله كما يجب ؛ أما الشر فهو الكبرياء والتعجرف . لو كانت الأموال شرًّا ، لما تقنا إلى الوصول إلى حضن إبراهيم الذى كان غنيًّا ، بدليل عدد خدامه البالغ ثلاثمائة وثمانية عشر . . . تُسمى الأموال أشياء مفيدة لكى تخدمنا ، لا لكى نخدمها . تسمى أملاكاً حتى نملكها نحن ، فلا يحدث عكس ذلك .

(على كتابة المذبح ، رقم ٢)

نص من عشرة آلاف على الصدقة . . .

بولس يشهد على أهل فيلبي ، لا على مجرد إيمانهم والأخطار التى اقتحموها فى سبيله ، بل على إحسانهم أيضًا . قال : « فور معرفتكم الإنجيل ، بعثتم إلىّ بما يلزم ، وهو ما لم تفعله كنيسة أخرى » . فلنفهم نحن أيضًا تلك الأمثال ولنجتهد لنصير جدراء بها . وفى أول الأمر لنظهر متأهبين ومستعدين للتألم فى سبيل المسيح .

بيد أنه ، فى زماننا ، لا يوجد مضطهدون يسيئون معاملة النصارى . فيبقى علينا الاقتداء بإحسان أهل فيلبي الناجح النشيط ، بدون أن نتوهم أننا ، إذا أعطينا مرة أو مرتين ، نكون قد قمنا بواجبنا ، فإن واجب العطاء يدوم طول حياتنا . أبناء عائلة شريفة لا يخلعون قط الحلية الذهبية المعلقة برقبتهم ، دليلاً على شرف أصلهم . كذلك يجب علينا أن نحمل الصدقة فى كل مكان وعلى الدوام ، دليلاً على مزية نبالتنا بصفة أبناء الرحمن العظيم الذى يُطلع شمسه فوق الأشرار والصالحين .

ربما قلتم لى إن غير المؤمنين لا يؤمنون بالله . والحال أنهم يشرعون فى الإيمان به ، إذا سلكنا نحن النصارى السلوك المشار إليه . إذا رأونا مفعمين حبًا لكل إنسان، فإنهم يفهمون أننا نفعل ذلك اقتداءً بمعلمنا.

تعلمون كل العلم أن جميع رزاياكم تأتيكم من الغنى ، وأن الغنى يجلب فى الغالب كل الحروب. ولذلك من تعلم احتقار الغنى ، فقد استقر فى ميناء هادئ ليس فيه ضرر يُخشى. هذا الإنسان إنما مثقفته الصدقة ؛ لا حاجة له إلى اشتهاء مال غيره ، فإنه يبذل ماله الخاص بأريحية . يجهل ماهية الحسد ، لأنه يريد أن يصير فقيراً باختياره ؛ على هذا المنوال صارت عين نفسه متزهة عن كل وصمة .

وكل ذلك لا يصح إلا فى خيرات الدنيا . أى خطاب يستطيع سرد جميع الخيور التى سوف يكون المتصدق مالكها فى السماء ؟

(مقدمة على الرسالة إلى أهل فيلبى ، الرقمان ٢ و ٣)

بضعة أقوال على التهذيب

يقول بولس لأهل أفسس : « أنتم ، أيها الآباء ، ربوا أولادكم على حفظ النظام ووفقاً لتعليم الرب » . إذا كنا قد أمرنا بالسهر على نفوسهم بصفة من يتحتم عليهم أن يناقشوا الحساب فى ذلك الشأن ، فكم ينبغى هذا ، بإلزام أشد ، للوالد الذى ولدهم ، الذى هذبهم ، الذى يلازمهم فى البيت ! فكما أنه لن يستطيع وجود عذر لخطاياه الشخصية وطلب الصفح عنها ، هكذا يكون عجزه حين يخطأ أولاده . . .

أمن الممكن أن يأبى والد إحكام تهذيب ولده ؟ لا أب جديراً بذلك الاسم يقول ذلك القول الفاحش ، فإن الطبيعة ذاتها تدله على واجبه الأبوى وتحثه على القيام به . . .

إذا أصبح الأولاد أشراراً ، فسبب ذلك أن لوالديهم آراء غير معقولة فيما يختص بخيرات الدنيا . يحصرون أفكارهم فيها . ويعطونها المقام الأول ، ويهملون العناية بنفوس أولادهم بقدر ما يهملون العناية بنفسهم . مثل أولئك الآباء — ولا يزعمن أحد أني أقول ذلك عن غضب — مثل أولئك الآباء أثقل إجراماً ممن يقتلون أبناءهم ! .

(ضد الخصوم ، الكتاب ٣ ، الرقم ٤)

أتريد أن تورث ابنك الغنى ؟ علّمه اللطف والحلم . إذا كان شريراً ، ولو خلّفت له ثروة فاحشة ، فإنك تتركها في الدنيا بلا حارس . الأولاد الذين أسيء تهذيبهم ، خير لهم جدًّا أن يكونوا فقراء من أن يكونوا أغنياء !

(الميمر ٩ على الرسالة الأولى إلى تيموثاوس)

نهمل خلاص أولادنا وخلاصنا . ومن ثم عدم حكمة فاحش . ينتج أيضًا عن ذلك أن أولاد العائلات الوجيهة أنذل من العبيد . ولماذا أذكر العبيد ؟ إذا كان لأحد بغل ، فإنه يعنى كل العناية بأن يعطيه أفضل بغّال ، بغّالاً عادم الخيانة ، صالحاً ، معتدل الأكل والشرب ، خبيراً في حرفته . أما إذا تحتم عليه طلب أستاذ لأبنائه ، فإنه يقبل بدون اختيار أول من يمثُل بين يديه ! ومع ذلك أي فن يمكنه مجاراة الفن الذي غايته تثقيف نفس شاب وهدايتها ؟ المتضلع من ذلك الفن في حاجة إلى اجتهاد أشد جدًّا مما يحتاج إليه كل مصور أو نحات !

(الميمر ٥٩ على إنجيل القديس متى ، الرقم ٧)

بضعة أفكار . . .

إنه لمن الصعوبة بمكان أن نُعرض عن محبة ، عن هيام متأصل ، أن ننبذ فُرصاً عديدة للخطيئة ، أن نبسط جناحينا للشروع فى الطيران إلى قبة السموات . إن عذاب الشهداء كان قصير المدة ، أما فى الحالة السابق ذكرها ، فالعذاب طويل . . .

(ضد المساكنات ، الرقم ٥٠)

قل لى ، أيشق علينا ألاّ نبحث برغبة فى المعرفة ، عن حركات القريب وسكناته ، وألا نحكم على ذنوبه ؟ أليس بالعكس ذلك التنقيب وتلك الأحكام على غيرنا شغلاً شاغلاً ؟

(على الندامة ، رقم ٢٦)

فليقل لنا أولئك المفرطون فى التفخل إلى حد إبائهم لبس ثياب من صوف ، فلا يرضون بغير الملابس الحريرية ، وقد بلغ الجنون بهم مبلغاً يجعلهم يطلبون نسج خيوط ذهبية فى ثيابهم — والنساء هن على الأخص الداثبات على ذلك الترف — فليقولوا لنا لماذا يزينون جسدهم هكذا

وأى لذة يذوقون باكتسائهم على ذلك المنوال . أنسيتَ أن الثوب لم يرده الله إلا عقاباً لمعصية ؟ ولماذا لا تصغى إلى ما يقوله لك بولس « نحن راضون بمجرد حصولنا على الطعام واللباس » ؟ ترى من ثم أنه يكفينا الاهتمام بشىء واحد ، وهو ألا نكون عُراة. ولكن أيلزم أيضًا لإلباس جسدنا ، أن نهتم بلبس ثياب مطرّزة ؟

(الميمر ١٨ على سفر التكوين ، الرقم ٢)

باقتفاء بولس آثار المعلم ، قد أبى فى بعض الأحيان أن يبالى بالمتشككين ، وقد راعاهم فى أحيان أخرى ، وقد قال : « أحاول أن أرضى كل الناس فى كل شىء ، بدون اعتبار مصلحتى الخاصة ، بل مصلحة جميعهم ، ليفوزوا كلهم بالخلاص » . فإذا احتقر بولس منفعته الشخصية لئلا يطلب سوى فائدة أكثر الناس ، فأى عقاب نستحقه إن كنا لا نتجنب الابتعاد عن ضررنا الشخصى لطلب فائدة غيرنا ، بل نريد أن نهلك معهم على طريق التنعم ، مع استطاعتنا أن نخلصهم ونخلص ذواتنا معهم ؟ حين يرى بولس أن المكسب سيفوق الخسارة ، لا يكترث للمتشككين أدنى اكتراث ، وحين يرى أنه لا مكسب يعوّض عن التشكك المنفرد بتأثيره ، فهو مستعد لكل عمل ولكل معاناة لتجنب التشكيك ، بدون أن يجادل جدالا شائناً كما نفعل نحن . لا يقول عن سائر الناس : « لماذا ضعفهم بالغ هذا المبلغ ؟ لماذا يتأثرون بلا انقطاع ؟ »

فإن ذلك عينه هو سبب تحاشيه عن تشكيكهم ؛ وهو أنهم ليسوا ذوى ذكاء شديد وأنهم ضعفاء . . .

(على المساكنات ، الرقم ١٤)

لا نزعمن أن وجود شركاء يشاطروننا خطايانا هو عذر لنا ؛ إنه ، بعكس ذلك ، ظرف مثقّل . الحية قد عوقبت بعنف أشد منه فى المرأة ؛ والمرأة قد فاقت الرجل بشدة قصاصها . إيزابل قد سيمت عقاباً أقسى من عقاب آحاب ، سارق كرم نابوت ، لأنها كانت قد كادت كل تلك المكيدة وهيأت للملك فرصة الخطيئة .

من ثم ، إذا كنت أنت أيضًا للآخرين سبب هلاكهم ، فسوف تسام أعذبة أشد من التى يُسامها من أسقطتهم فى الخطيئة . أن نخطئ وحدنا لا يساوى بالثقل حث غيرنا على الإخطاء .

إن اتفق إذاً أن نرى أناساً يرتكبون معاصى ، فلنتجنب تشجيعهم ، بل لننتشلهم انتشالاً عمليًا من هاوية خباثتهم . لئلا نذنب بإسلام غيرنا للهلاك . لنتذكر بلا انقطاع تلك المحكمة المرعبة ، ذلك النهر النارى ، تلك الكبول التى لا يستطيع أحد كسرها ، تلك الدياجى الحالكة ، ذلك الصريف بالأسنان ، تلك الديدان السامّة بلسعها .

(الميمر ٢٥ على الرسالة إلى الرومانيين ، الرقم ٤)

المبدأ واضح . . .

الله لا يريد أن يكون المسيحي راضياً بمجرد الاهتمام بذاته دون سواه، بل يريد أن يكون قدوة لغيره بتعليمه ، بحياته ، بسلوكه . لا شيء يفوق مثل حياة طاهرة بحثنا على السير في طريق الحقيقة ؛ ولا يعتبر الناس ما نقول بقدر اعتبارهم ما نفعل .

(الميمر ٨ على سفر التكوين ، الرقم ٥)

نُمنح وزنات باعتبار ما يستطيع كل واحد أن يعمله : إما حماية القريب بنفوذنا . وإما مساعدته بمالنا ، وإما نصحه بتعليمنا . وإما كل شيء آخر من شأنه أن يعين القريب . فلا يقل أحد في نفسه : « ليس لي سوى وزنة واحدة . فلا أستطيع أن أعمل شيئاً » . يمكنك كل الإمكان أن تنال استحسان الرب لشيء واحد . لست أفقر من أرملة الإنجيل ولا أقل ثقافةً من بطرس ويوحنا . مع بساطتهم وجهلهم قد صاروا أمراء السموات إذ اهتموا كل الاهتمام بإفادة قريبهم .

لا شيء أكثر إرضاءً لله من وقف كل حياتنا على خدمة القريب . من ثم قد أعطانا الله العقل والكلام ، ومنحنا روحاً وعقلاً ، يدين ورجلين

وقوى جسدية . كل ذلك يجب أن يفيدنا لوقاية ذاتنا والقريب. الله لم يمنحنا الكلام لنشكره فقط ، بل ينبغي أن يفيدنا أيضًا لتعليم الآخرين ولنصحهم. فإذا استعملناه بفائدة فى هذا الشأن ، فإنما نقتدى بالله ، وإلا فبالشيطان .

(الميمر ٧٨ على إنجيل القديس متّى ، الرقم ٣)

أترى بكم طريقة يحثنا الرب على الاعتناء بإخوتنا ، حتّى أحقرهم ؟ فلا تقل بازدراء : « ليس هذا الشخص سوى عامل فى صناعة المعادن ، مرقّع أحذية بالية ، فلاح ، متوحش » . ستتجنب السقوط فى ذلك الذنب إذا أحسنت اعتبار الطُّرق العديدة التى يحثك بها الرب على السلوك المعتدل والاعتناء بهم .

قد جعل طفلاً فى وسط التلاميذ وقال لهم : صيروا كالأولاد الصغار ؛ من قبل أحد أولئك الصغار ، فإياى يقبل ، ومن يحركهم إلى الشر يقاس التعذيب الأعظم . فإذا كان الله يفرح ذلك الفرح الشديد بخلاص ولد صغير ، فلماذا تحتقر أنت من هم موضوع تلك العناية الإلهية ؟ كان من الأحرى بك أن تعدّ أمراً خطيراً بذل حياتك ذاتها لأجل أحد أولئك الصغار ، فإن الله قد عُنى بنفسهم إلى حد كونه لم يُبق على ابنه ذاته.

من ثم أرجو منكم أننا ، حين نخرج من بيوتنا فى أول الصباح ، لا تكون لنا غاية أو هم سوى انتشالنا من الخطر من هو عُرضة للسقوط فيه. من المفهوم أنى لا أتكلم عن الأخطار المادية التى ليس فيها شىء من الخطر ، بل عن التى تقف للنفس بالمرصاد ، ويهيئها إبليس ضد البشر .

ــ ولكنه صعبٌ احتمال الأشرار !

ــ من ثم ، وأيم الحق ، يجب أن تحب الشرير حبًّا عظيماً بحيث تنتشله من رذائله وتعيده إلى الفضيلة .

ــ لكنه لا يصغي ولا يقبل أدنى نصيحة !

ــ كيف تعلم ذلك ؟ هل أرشدته واجتهدت لتحسين حالته ؟

ــ لقد أرشدته مراراً .

ــ كم مرة ؟

ــ مراراً غير قليلة ، مرة أو اثنتين .

ــ أهذا ما تسميه مراراً غير قليلة ؟ ولو قضيت كل حياتك فى ذلك الإرشاد ، لما ساغ لك الكف عنه ولا اليأس . ألا ترى كيف لا يزال الله يرشدنا بواسطة الأنبياء والرسل والإنجيليين ؟ وما هى النتيجة ؟ أنسلك كما ينبغي ؟ أنطيعه طاعة كاملة ؟ كلا ! أيكف لذلك عن توبيخنا ؟...

(الميمر ٥٩ على إنجيل القديس متّى ، الرقمان ٥ و ٦)

أى شقاء وأى جنون أشد من اللذين نجدهما فى بعض الناس المدعين أن الأمور تحدث على وجه الاتفاق ، فينكرون معونة العناية الإلهية للبرية كلها ؟ . . . بيد أنه غير مفيد أن نضيع وقتنا فى إثبات ما يراه الأعمى ذاته ، كما يقول المثل السائر .

مع ذلك لا نهملْ أن نقدم إليهم تعليم الكتاب المقدس ، ولنبذل كل جهدنا فى إخراجهم من الضلال وهدايتهم إلى الحقيقة . مع أنهم

لا يزالون تحت سطوة الضلال ، إنهم بشر بقدر ما نحن ، فيليق أن نُعنى بهم عناية كبيرة ، ألاّ نستسلم للإهمال ، أن نبذل قصارانا بانتباه شديد حتى نقدم إليهم الدواء الناجع الذى يعيدهم يوماً من الأيام أخيراً إلى الصحة الحقيقية .

إن الله ، فى الواقع ، ليست له عناية أكبر من عنايته بتخليص النفوس . ذلك ما يعلنه بولس : يريد أن يخلص جميع البشر ويصلوا إلى معرفة الحقيقة . والله ذاته يتكلم هكذا : « لا أريد أن يموت الخاطئ ، بل أن يهتدى ويحيا » .

بما أن لنا مثل ذلك الرب المفعم جدّاً بالرحمة واللطف والحلم . فلنهتم بخلاصنا وبخلاص إخوتنا . إن الدليل على خلاصنا وسببه سيكونان عدم قصر اهتمامنا على ذواتنا ، بل كوننا قد أفدنا قريبنا وهديناه إلى طريق الحقيقة .

لكى تعرف أن من الأمور الصالحة سعيك لخلاص القريب وفى الآن ذاته لخلاصك ، أصغ إلى هذه الكلمة التى يلفظها النبى بالنيابة عن الله : « من يُخرج شيئاً ثميناً مما هو دون ، يكن مثل فمى » . ما معنى هذا القول ؟ من يُخرج القريب من الغواية ويهده إلى الحقيقة ، أو ينتشله من الخطيئة ويهده إلى الفضيلة ، يقتدى بى بقدر قواه البشرية . وفى الواقع هو ، الذى هو الله ، لم يتشح بلحمنا لغاية أخرى ، ولم يتأنس إلا ليخلص البشر ...

فإذا كان هو الإله ، الذى لا يعبَّر عن كنهه ، قد أراد احتمال كل

شيء بسبب لطفه الفائق التعبير ، لأجلنا ولأجل خلاصنا ، فكيف لا يكون من مقتضى مجرد العدل أن ننقذ من الهاوية الشيطانية ونهدى إلى الحقيقة من هم أقاربنا وأعضاؤنا ؟

(الميمر ٣ على سفر التكوين ، الرقم ٤)

يجب أن نضطرم بحرارة عظيمة وبغيرة شديدة لئلا نعاقَب بعدم تمكننا من إدراك السعادة التى وُعدنا بها . ذلك عينه ما يريد المسيح تعريفنا إياه حين يقول : « إن لم يأخذ الإنسان صليبه ولم يشرع يتبعنى ، فليس جديراً بى » . وأيضًا « لقد أتيت لأُلقى ناراً على الأرض ، وماذا أريد سوى أن تشتعل ؟ » هذان القولان يريانا أنه يجب على التلميذ أن يضطرم بنار الحرارة ويكون مستعداً لمقاساة جميع الأخطار .

هكذا كانت السامرية فى الواقع . لقد ألهبتها أقوال المسيح إلى حد كونها قد تركت فى مكانها جرتها والماء الذى استقته من هنيهة ، هى التى لم تسلك كل الطريق إلا لتلك الغاية . فركضت إلى المدينة وأتت إلى المسيح بجميع الأهالى . قالت : « هلموا وانظروا الرجل الذى قال لى كل ما عملته » . لاحظوا غيرتها ومهارتها أيضًا . كانت قد جاءت لاستقاء الماء ، فاكتشفت الينبوع الحقيقى . ومن ثم تحتقر الينبوع الواقع تحت النظر لتعلمنا بقدوتها ، ولو كانت وضيعة ، أنه ينبغى لنا أن ننتبه كل الانتباه للتعليم الروحى ونزدرى أشغال هذا العالم ، أنه يجب علينا ، بقدر استطاعتنا ،

ألا نقيم لها أدنى وزن . ما فعله الرسل قد فعلته السامرية أيضًا ، بل بمبادرة أشد ، فإن الرسل لم يتركوا شباكهم فى موضعها إلا عند دعوة الرب ؛ أما هى فقد تركت جرتها فى مكانها من تلقاء ذاتها ، بدون أمر صادر من المسيح ،وها هى ذى تقوم بوظيفة الإنجيليين بفرح يعطيها جناحين . لم تأت إلى المسيح بشخص واحد أو باثنين ، مثل أندراوس أو فيليبس ؛ إنما هزت كل المدينة وأتت إلى المسيح بجميع الأهالى .

لاحظوا أيضًا حذاقة كلامها ؛ لم تقل لهم « تعالوا وانظروا المسيح » . بعكس ذلك قد أثارت رغبتهم فى المعرفة مثلما كان المسيح قد وفق سلوكه لعقليتها حتى يجتذبها . قالت لهم : « تعالوا وانظروا رجلاً قال لى كل ما فعلته » . لم تخجل من قولها « قال لى كل ما فعلته » ، بينما كان يمكنها الاكتفاء بقولها لهم « تعالوا وانظروا نبيًا » . ولكن بما أن نفسها مشتعلة بنار إلهية ، فهى لا تعبأ بالأرضيات ، بصيتها الحسن أو السيء ، فإنها مدفوعة بسعير تلك النار دون سواه . « أليس هو المسيح ؟ » لاحظوا هنا أيضًا حكمة هذه المرأة ؛ لا تؤكد تأكيداً صريحاً ، ومن جهة أخرى لا تضرب صفحاً عن شىء . سبب ذلك أنها لم ترد أن تأتى إلى المسيح بالآخرين لاستنادهم إلى شهادة يقينها الشخصى ؛ أرادت بالعكس أن يشاطرها الآخرون إياه بعد سماعه هو ، مما يزيد يقينهم صواباً . . . لا تقول لهم « تعالوا وآمنوا » ، بل « تعالوا وانظروا » ، وذلك أقل جزماً للأمر وأشد إثارةً لرغبتهم فى المعرفة . ترون لعمرى مهارة تلك المرأة . كانت تعلم علم

اليقين ، لأنها شربت من ذلك الينبوع ، أنه سوف يحدث لمواطنيها ما قد حدث لها . أما امرأة غيرها وأقل ذكاءً منها ، فكانت قد تكلمت بوضوح عن التوبيخات التى سيمتها . لكنها هى تكشف علانية حياتها الماضية لكى تجتذب كل الناس وتستولى عليهم .

(الميمر ٣٤ على إنجيل القديس يوحنا ، الرقم ١)

قد أطلقوا اسم آلهة على حجارة وخشب ؛ قد ألهوا ما ليس سوى مادة واقعة تحت النظر ، فإن من وضع رجله خارج الطريق المستقيم ، ينقضّ كالأعمى ويسقط إلى قعر حفرة الخباثة .

ليس ذلك داعياً إلى يأسنا من خلاصهم ؛ فلنقدم إليهم المعونة التى تمكّننا منها قوانا ، فلنقدمها بنشاط وبصبر وافر ، ولنُرهم حماقة سلوكهم وجسامة الضرر الذى تجره عليهم ، ولا تخمد أبداً همتنا فى سبيل خلاصهم. من المرجح أننا نوفّق إلى إقناعهم بعد حين ، على الأخص إذا عشنا بحيث لا تسنح لهم بسببنا أدنى فرصة لرذلنا . كثيرون بينهم من يرون أن بعض إخواننا المشرّفين باسم نصارى ، ليس لهم من النصرانية سوى اسمها ، أما فى سائر الأمور فهم مثلهم : لصوص ، نهمون فى المال ، حُساد ، ناصبو فخاخ ، عادمو الاستقامة فى الأشغال ، إلى غير ذلك من الرذائل ، سكّيرون وهائمون باللذات . فلا يقبلون فى تلك الظروف تنبيهات منا ؛ يعدّون تعليمنا خداعاً ، ويزعمون أننا لسنا أفضل منهم . فأتوسل إليك أن

تتبصر فى تعذيب أولئك النصارى الذين لا يكتفون بتهيئة النار الأبدية لذواتهم ، بل يحملون عبء المسؤولية عن كون الآخرين يتمادون فى أضاليلهم ويصمون عنهم آذانهم بحيث لا يستطيعون تعلم الفضيلة . علاوةً على ذلك هم مسؤولون عن كون النصارى الفضلاء ذواتهم يُرمون بالرثاء ويلامون بسببه ، والشر الأعظم أنهم مدعاة إلى التجديف على الرب . . .

فليكن عملنا فى كل ميدان بحيث يكون ضميرنا نحن نقياً وسلوكنا المطابق لمشيئة الله يهدى إلى الحقيقة من لا يزالون فى الضلال ، كأننا نمسك يدهم ، وبحيث نتمتع نحن وجميع الذين فى عداد أبناء الكنيسة بصيت حسن ، لكى يمجد سيدنا قبل كل شىء ويزيد عنايةً بنا . حين ينظر إلينا الناس ويستفيدون من تلك النظرة ، سيشكرون الله على ذلك ، وننال من الله نعماً أكثر لهذا السبب . من هو أسعد من إنسان يعيش بحيث يُدهش الناظرين إليه فيصيحون : « المجد لك ، يا إلهى ! ما أعجب هؤلاء النصارى ! ما أكثر الحكمة فى سلوكهم ! ما أشدا حتقارهم لخيرات الدنيا ! ما أغرب كونهم يعدّون كل الأرضيات مناماً وظلاً ! ما أروع تجردهم عن كل ما يُرى ! إنهم يعملون كل أعمالهم كأنهم مارون على هذه الأرض ، لا غير ؛ كل يوم يتوقون إلى الخروج من هذه الحياة ! »

ألا تظن أن الذين يعيشون تلك العيشة ، وينطقون عشراءهم تلك الأقوال الفائقة الجمال ، لن ينالوا مكافأة من الله ، وهم فى قيد الحياة ؟ ألا تظن — وهذا أمر عجيب مدهش — أن الذين يرون ذلك الرأى فينا

لن يتركوا أضاليلهم ويهتدوا إلى الحقيقة ؟ لا يستطيع أحد أن يشك فى أن سلوكنا كان يُثير فيهم الثقة .

من ثَم ، إذ نعلم أننا سوف نؤدى حساباً على كسبنا للقريب أوخسارتنا إياه ، فلنسلك بحيث لا تكون حياتنا صالحة فى نظرنا فقط ، بل تكون فرصة تعليم للآخرين . على هذا المنوال نكفل لذواتنا على الأرض نعماً أكبر من عند الله . وفى الأبدية نتمتع تمتعاً كاملاً بجودته ، بواسطة نعم ومراحم ابنه الوحيد الذى نتمنى أن يكون له وللآب وروح القدس المجد والسلطان والإكرام الآن وعلى الدوام وإلى دهر الداهرين . آمين .

(الميمر ٧ على سفر التكوين ، الرقمان ٦ و ٧)

أما نحن الذين نفتخر بتصديقنا حقائق الإيمان الصحيح ، فلنحذر أن نهتك شرف الله بكوننا سبب تجاديف عليه . إن لم نعش عيشة مطابقة لذلك الإيمان . إن الله يريد أن يكون المسيح معلم العالم ، خميره ، نوره ، ملحه . ما هو النور ؟ حياة نيرة بدون شيء مظلم . النور لا يسطع لذاته ؛ الملح والخمير لا يفيدان إلا أشياء غيرهما . كذلك يقتضى الله ألا نفيد ذواتنا فقط ، بل غيرنا . إن لم يملّح الملح . فليس ملحاً ، بل تحول إلى شيء آخر . إذا عشنا عيشة لائقة . أحسن الآخرون سلوكهم ؛ ما لم نعش كذلك ، فلن نُجدى غيرنا أقل نفع .

(الميمر ٥٢ فى إنجيل القديس يوحنا ، الرقم ٤)

الميمر الحادى عشر على إنجيل القديس يوحنا

أطلب منكم إنعاماً قبل معالجة نص الإنجيل ، فأرجو ألا تردوا طلبى . من جهة أخرى لا شىء شاق ولا ثقيل فى ما ألتمسه منكم . إذا منحتمونى إياه ، فلا يفيدنى أنا وحدى الذى أناله ، بل إياكم أيضًا الذين تعطونه ، بل من المرجح جداً أن تكون فائدته لكم أكثر جداً منها لى .

فماذا أطلب منكم ؟ أن يأخذ كل منكم فى يده ، أول يوم من الأسبوع أو السبت ، فقرة الأناجيل المنوية قراءتها فى الاجتماع ، أن تجلسوا فى بيوتكم لمطالعتها ولإعادتها ، أن تنقبوا وتبحثوا مراراً عما قيل فيها ، أن تقيدوا منها الواضح والغامض وما يوبد لكم أنه تناقض بين تعابيره ، مع كونه غير موجود أصلاً . وبعد ترويكم غير مرة فى كل شىء على ذلك المنوال ، تعالوا إلى الاجتماع ، فتجنوا أنتم ونحن أيضًا نفعاً جزيلاً من ذلك البحث .

من جهتنا لن نحتاج ، فى الواقع ، إلى عناء شديد لنبين لكم معنى الجمل ، فإن ذهنكم يكون قد ألف النص ؛ أما أنتم فيكون هذا البحث قد جعلكم أسرع فهماً وأشد ذكاءً ، لا لتفهموا وتتعلموا أنتم وحدكم ، بل لتعلموا الآخرين .

بسبب سلوككم الحاضر، كثير من الموجودين هنا يرون ذواتهم مضطرين إلى حفظ أقوال الكتاب المقدس وشروحنا فى الآن ذاته ، فمن الممكن أن نقف على ذلك العمل سنة كاملة بدون أن يجنوا منه جدوى . وكيف يستطيعون الاستفادة . وهم لا ينتبهون للأقوال إلا بدون تريث ومدة هنيهات قصيرة ؟

إنهم يعتذرون لى بأشغالهم ومشاغلهم وأعمالهم فى الخارج وفى بيوتهم . فأجيب تنصلهم هذا أولاً بقولى إن تحميل الإنسان ذاته مثل ذلك العبء الفادح من الأشغال هو ذنب غير خفيف . وكذلك أن ينهمك على الدوام فى أشغال هذه الدنيا بحيث لا يواظب أدنى مواظبة على الأمر الضرورى الوحيد . ثم أقول إن كل ذلك ليس سوى عذر خادع لأصحابه ، والبرهان على ذلك ثرثراتهم مع أصدقائهم وترددهم إلى المسارح وحضورهم سباقات الخيل ، وجميعها أمور أكثر ما يقضون فيها سحابة نهارهم بدون أن يعتذروا قط لكثرة مشاغلهم ! حين تُقصد تلك الشؤون السافلة ، لا تعتذرون بكون أشغالكم تمنعكم . أما إذا كان المطلوب الاهتمام بالديانة ، فيظهر لكم ذلك عادم الفائدة والخطورة بحيث ترون أنه غير جدير بأدنى اهتمام . أفيستحق ذوو تلك النزعات أن يتنفسوا ويشاهدوا النور ؟

لأولئك الكسالى ، فضلاً عن ذلك ، عذر آخر فيه من الحماقة ما فيه ، وهو أنهم لا كُتب لهم . أن يفوه أناس رافهون بمثل هذا الكلام ، أمر يُضحك الثكلى ، لا غير . أما إذا كانوا فقراء ، كما أعلم أنه يحدث

فى الغالب ، فإنى أسألهم بدون لهجة لاذعة هذا السؤال : ولو كنتم فى أشد الفقر المدقع ، أليس لكل منكم ما يلزمه من عُدة الآلات الكاملة والحسنة الحالة لممارسة حرفته ؟ أفليس من البلاهة ألا يُحسب حساب للفقر ، فلا يُعد مانعاً فى ظرف ما ، وأن يأخذ الإنسان ، فى ظرف آخر ، حيث المطلوب أمر جزيل الفائدة ، يتشكى من أشغاله وقلة ماله ؟

فلنسلّم بأن بعض الناس بالغون هذا المبلغ من رقة الحال : يسعهم مع ذلك ألا يجهلوا شيئاً من محتوى الكتاب المقدس بالإصغاء إلى قراءته المتواصلة عليهم . المألوفة فى هذا المكان . ربما ظهر لكم ذلك مستحيلاً ، وأنتم مصيبون وأيم الحق ، فإن كثيرين لاينتبهون للقراءات انتباهاً يُذكر ، فيصغون إليها بإهمال ، ثم يعودون فوراً إلى بيوتهم بدون انتظار الموعظة . أما الذين لا ينصرفون فوراً بعد القراءات ، فيكادون لا يفوقون المبادرين إلى الانطلاق بحسن نصيبهم ، فإنما هم حاضرون بأجسادهم !

بيد أنى لا أريد أن أضايقكم مدةً أطول بتوبيخاتى ، ولا أقضى كل الوقت فى تبكيتكم . فلننتقل إلى نص الإنجيل ونهتم الآن بالمواضيع التى يقدمها إلينا . فانتبهوا كل الانتباه لئلا نضيعوا شيئاً مما أنا على وشك قوله .

« والكلمة صار جسداً وحل فينا » . الإنجيلى بعد ما قال إن الذين قبلوه مولودون من الله وصاروا أبناءه ، يوضح لنا سبب ذلك الشرف الفائق الوصف ، وهو أن الكلمة قد صار جسداً ، وأن الرب قد اتخذ حالة عبد . فى الواقع قد جعل ذاته ابن الإنسان ، بينما كان بكل الحقيقة ابن الله ،

ليصيّر الناس أبناء الله . حين يلتفت العالى المقام إلى السافل الحال ، فذلك لا يمس مجده بأدنى ضرر ، وغايته أن يرفع السافل من سفالته ؛ هذا ما حدث فى المسيح .بنزوله من السماء لم يُنقص شيئاً من طبيعته الإلهية ، غير أنه رقّانا إلى مجد لا يوصف ، نحن الذين كنا على الدوام فى العار والظلمات . تجرى الأمور على هذا المنوال حين يخاطب ملك متسولاً فقيراً بعطف واهتمام ، فهو لا ينتّهك شرفه البتة ، بل يجعل المتسول وجيهاً ممتازاً فى عين كل الناس .

فإذا كانت ، فى شأن مجرد أنواع الرفعة الأرضية ، التى كلها خارجية ، مخالطة رجل من عامة الناس لا تشين شرف الرجل عالى المقام ، فهى أقل من ذلك مساساً لحرمة القيّوم السعيد الخالد الذى لا يمكن قبوله شيئاً من الخارج ولا مفاجأة حادث له . بل هو صاحب كل الخيرات الأزلية التى لا يمكن تغيرها . من ثم ، إذا سمعتَ من القارئ « الكلمة صار جسداً » ، فلا تضطرب لذلك ولا تقع فى حيص بيص . فليس الجوهر الإلهى ساقطاً فى الجسد ؛ إن ذلك التصور يكون كفراً . لكنه ، وهو باق ما كان ، قد اتخذ حالة عبد .

لماذا استعمل الإنجيل الكلمة «صار » ؟ ليُلقم الهراطقة الحجر ، فمنهم من قالوا إن التأنس ليس سوى وهم ومظهر . قال الإنجيلى « صار » ليزيل ذلك التجديف قبل حدوثه . على هذا المنوال كان يعلن لا تغير الجوهر الإلهى ، بل اتخاذ جسد محض . الكتاب المقدس يقول على الوجه عينه

« إن المسيح قد حررنا من لعنة الناموس بجعله ذاته موضوع لعنة لأجلنا » . ذلك لا يعني أن القيّوم ، حين غادر المجد ، قد تحول إلى موضوع لعنة . حتى أحمق الشياطين وأجنّهم لم يكن ذلك الخاطر ليخطر ببالهم ، لفرط البلاهة المقرونة بالكفر التي تفوح منه . الكتاب المقدس لا يقول ذلك ، بل يقول إن المسيح قد أخذ على عاتقه اللعنة المحكوم بها علينا ، فلم يتركنا ملعونين مدةً أطول . من ثم يقول في تلك الفقرة إنه قد صار جسداً ، وذلك لا يعني أن القيّوم قد تحول إلى جسد ، بل أنه اتخذ جسداً بدون تغير جوهره .

فإن قال الهراطقة إن الله ، بصفة الكلي القدرة ، قد استطاع الانحطاط إلى دركة الجسد ، أجبناهم أن الله ، في الواقع ، قادر على كل شيء ، ولكن بشرط أن يبقى إلهاً . فإذا تحول — وما هو شر من ذلك — إذا تحول إلى جوهر أسوأ ، فلا نرى كيف يكون إلهاً . فإن التغير بعيد عن الطبيعة المستحيل تغيرها ، وذلك ما جعل النبي يقول : « كل الناس يبلَون مثل ثوب ، تغيرهم كثوب يغيَّر ؛ أما أنت فإنك على الدوام ما أنت هو ، وأعوامك لا نهاية لها » . القيوم فوق كل تغير ؛ لا شيء يفوقه ولا يستطيع الترقي إلى حد بلوغ سموه . كيف ذكرتُ التفوق ؟ لا شيء يساويه ، لا شيء يقدر أن يساويه حتى أدنى مساواة . فينتج عن ذلك أنه ، إذا تحول ، فلا يمكن تحوله إلا إلى شيء أسوأ ؛ أو أقول من ثم إن من المحال أن يكون إلهاً .

قد قيل إذاً « صار » لئلا يخطر ببالك مجرد المظهر . ولكن لاحظ

ما يلي « وحل فينا » . كأنه قد قيل : الكلمة « صار » لا يسوغ أن تذهب بنا إلى تفكير مناقض للصواب . لم أتكلم عن تغير الطبيعة المستحيل تغيرها ، بل أتكلم عن حادث سكناها . السكنى والمسكن أمران مختلفان ؛ الشيء يسكن فى غيره ، وإلا فلا يمكن التكلم عن السكنى ؛ لا شيء يسكن فى ذاته . حين أقول « الشيء » ، فإنى أعنى الجوهر . الكلمة والجسد هما شيء واحد فى اتحادهما واقترانهما بدون أدنى اختلاط الجوهرين ولا زوالهما ، بل بواسطة اتحاد فائق الوصف والشرح . كيف يحدث ذلك ؟ لا تبحث عنه ، فإنه يحدث على وجه قد انفرد الكلمة بمعرفته .

وما هو إذاً المسكن الذى سكن فيه ؟ أصغ إلى قول النبى : « سأرفع خيمة داود الساقطة » . أجل ، وأيم الحق . كانت قد سقطت ؛ كانت طبيعتنا قد انحطت بوقعة لا علاج لها ، وكانت يده القديرة وحدها تستطيع إقالة عثرتها . كانت لا تقوى على النهوض بطريقة غير مد من خلقها فى البدء يده إليها وتجديده خلقها من علُ بماء الميلاد الجديد وبروح القدس.

انظر إلى هذا السر المكنون الهائل : هو ساكن على الدوام فى تلك الخيمة ، لأنه قد اتشح بجسدنا ، لا ليغادره بعد ذلك ، بل ليحفظه على الدوام . لولا هذا لما كان مستطيعاً أن يؤهّله لعرشه الملكى ، ولما نال ، وهو متشح به ، سجود كل العسكر السماوى : الملائكة ، رؤساء الملائكة ، العروش ، السلاطين ، الرئاسات ، القوات . أى قول ، أى عقل يتمكن من شرح ذلك الإكرام المتاح لجنسنا البشرى ، ذلك الإكرام الفائق الطبيعة والهائل ؟

أى ملاك ؟ أى رئيس ملائكة ؟ ما من أحد ، لا فى السماء ولا على الأرض . إن أعمال الله وعظمة عوارفه لسامية بحيث تفوق الطبيعة كل التفوق إلى حد كون وصفها اللائق لا يتجاوز مدى كلام البشر فقط ، بل قدرة الملائكة أنفسهم .

من ثم نختم خطابنا بصمت التبجيل بعد تذكيركم واجب مقابلتكم اللائقة لإحسان ذلك المحسن الفائق العظمة ، مما يكون لنا فيما بعد مصدراً جديداً للجدوى . ولا نستطيع مقابلة إحسانه إلا إذا عُنينا بنفسنا عناية شديدة . إنه لمن شأن لطفه ، هو الذى لا يحتاج إلى أحد منا ، أن يقول لنا إننا نقوم بتلك المقابلة حتى لا نهمل الاهتمام بنفسنا . ولذلك يكون جنوناً محضاً جديراً بتعذيبات لا تحصى ، ألا نثمر فى الأعمال الصالحة بقدر وسعنا ، بعد نيلنا أنواع التشريف المذكورة . ولا سيما أن كل النفع ينتج لنا عن ذلك ، وأن خيرات لا يفى بها حصر معدّة لنا مكافأةً لهذا العمل .

فلنمجد على كل ذلك الإله الجزيل اللطف ، لا بالأقوال فقط ، بل بأعمالنا ، لنيل الخيرات المستقبلة التى أتمنى أن أراكم جميعاً حاصلين عليها ، بنعمة سيدنا يسوع المسيح ولطفه ، الذى نشتهى به وله أن يكون المجد للآب كما لروح القدس إلى دهر الداهرين . آمين .

الفهرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف
سنة ١٩٦٣

منشورات المعهد

المعادى

قائمة الكتب التى صدرت فى هذه المجموعة

١ – درب القداسة   تعريب : الأب جبرائيل عقيقى اليسوعى

٢ – الحياة الكاثوليكية فى عالمنا الحاضر تعريب : الأستاذ بطرس كساب

٣ – التجسد   تعريب : الأب لويس أبادير

٤ – القديس باسيليوس   تعريب : الأب جبرائيل عقيقى اليسوعى

٥ – القديس غريغوريوس النزينزى تعريب : الأب جبرائيل عقيقى اليسوعى

٦ – القديس أثناسيوس   تعريب : الأب أنطون نحال

٧ – القديس قبريانوس الإفريقى   تعريب : الأب جبرائيل عقيقى اليسوعى

٨ – الكنيسة أمام المشاكل الاجتماعية   تعريب : الأستاذ أنطون مطر

٩ – القديس يوحنا الذهبى الفم   تعريب : الأب رفائيل نخلة اليسوعى

تحت الطبع :

تعريب : الأب جبرائيل عقيق

